الدكتور علي حافظ بجنبي

سقراط

٧٨
اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٧٨ — مايو سنة ١٩٤٩

أثينــا

أثينا مدينة سقراط أعدت بنيها فى الزمان السعيد للجمال والخير . وحمل السابقون الأولون منهم صور الجمال فى القول والفعل إلى منزلة لا تدانى لأنهم انصرفوا عن سائر الدنيا إلى ذلك الجمال ، وصارت الإنسانية فى لغتهم رجلين إغريقياً أو « برباراً » ولكل منهم مذهب ونظر فى الحياة . فالإغريقى القديم العريق لا يحب شيئاً كحبه للحرية وكرامة الإنسان غير ناظر بعد هذا إلى ما يستمسك به البربار من قيم . كالذى يقصه بلوتارك عن سولون مشرع أثينا حينما قدم على ملك الميديين . فقد ذكر أن سولون مشى فى قصر هذا الملك فلقى أمراء ورأى عليهم ثياباً من حرير ورأى من ورائهم تبعاً وحراساً وعبيداً حتى ظن كل واحد منهم ملكاً . ثم قدم آخر الأمر على مجلس الملك فوجد عليه ثياباً من حرير ذات لون بهيج مزينة بما صنعت العقول من جواهر ، يريد أن يبهر بهيئته سولون . غير أن سولون لم يحفل بشىء مما رأى ، ولم يعجب بشىء مما تزين به هذا الملك ، وأبدى للذين يعقلون أنه يحتقر هذه

القلوب الدنية . فأمر به الملك أن يشهد كنوز الذهب والفضة وما فى القصر من متاع ، فرأى سولون كل ذلك مثنى وثلاث ثم رجع بعدئذ إلى مجلس الملك فسأله ذلك الملك : هلا رأيت أحداً أسعد منى ياسولون ؟ فقال سولون : بلى ! رأيت رجلا من أواسط أهل أثينا يدعى « تيللوس » وكان رجلاصالحاً وخلّفَ من بعده ذرية طيبة محترمة وترك مالا غير كثير ووهبته المقادير السعادة آخر الأمر فقضى مجيداً فى الذود عن وطنه . فظنه الملك مخبولا سفيهاً غبياً ، لأنه لا يرى سعادة هذه الحياة فى المال الكثير وفى الذهب والفضة ولا يراها فى جاه ملك قوى ذى بأس شديد ، ويراها فى عيش رجل خامل بسيط .
ثم سأله مرة أخرى : ومن رأيت أسعد منى بعد « تيللوس » ؟ فقال : رأيت « كليوبيس » و « بيتون » وكانا أخوين متحابين يحبان أمهما وكان على أمهما أن تذهب إلى المعبد ذات يوم من أيام الأعياد فى عربة يجرها ثوران ، فلما رأيا أمهما تنتظر ولم تحضر البقر حمل كل منهما طرفاً من زمام العربة وجرا العربة بأمهما إلى المعبد والناس معجبون يحسدون هذه الأم السعيدة عما أنجبت . ثم قفلا راجعين بعد ما أديا الصلاه ، ثم حضرتهما الوفاة فى ليلهما دون أن يجدا ألماً . وقد أصابهما ذلك الذكر الجميل والشرف . فغضب الملك ، فقال سولون : أيها الملك

إن الآلهة وهبتنا نحن الإغريق أوسط الأمور وآتتنا الحكمة فيما آتتنا ، وهى حكمة شعبية بسيطة ليس فيها شيء من أبهة الملك وكبريائه ، وهذه الحكمة تعظنا أن حياة الإنسان عرضة لغير الزمان، وتعظنا ألا نُسلِم سعادتنا لعرض قد يزول، وألا نحسد رجلا قد تزول عنه الدنيا؛ لأن الزمان يأتى على المرء كل حين بما ليس فى الحسبان ، فإذا حفظت الآلهة على رجل سعادته حتى آخر أيامه عددناه سعيداً . أما من يعد حياً سعيداً وهو لا يدرى ما تخبؤه له الأيام ، فمثله كمثل من يحكم بالنصر لمصارع قبل خاتمة الصراع . وقد أغضب ذلك القول الملك ، وكان فى المدينة يومئذ « إيزوب » صاحب القصص فعلم ما كان بين سولون وبين الملك ، فلام سولون وقال له : ياسولون إما أن نتجنب القرب من الملوك وإما أن نقربهم لنقول لهم ما يسرهم وما يرضيهم . فقال سولون : بل على العكس إما أن نتجنب الملوك وإما أن نقربهم فنقول لهم الصدق والنصح . وكانت أمة سولون قد هدتها سجية الجمال إلى الخير مثلما هدتها إلى الشعر والسياسة والتصوير وما نبغت فيه من سائر الفنون . وكان الفرد فيهم حراً وسيداً لا يدين لأحد بشيء .وإذا اجتمعت المدينة فى « الاجورا » فعلت ما تشاء غير مكرهة ويتولى إقناعها من يشاء من بنيها. وكان القول البليغ لازماً للسياسة كلزوم

السيف كلاهما أساس للسياسة . والبلاغة هبة من آلهة الشعر «من تصطفى بنات «زيوس» من الملوك وترعى مولده تصب على شفتيه طلاعذباً ، وتنساب الفصاحة من فيه حلوة كالشهد ، ويتأمله الشعب وهو يقضى فى الخصومات بعدل لا يضل ، وإذا خطب لا تزل فصاحته ، ويسكن بحكمته كل اختلاف وإن جل» ولا تطيع المدينة سوى مايمليه القانون ، والقانون عندهم لا يريد سوى العدل والجمال والخير . ذلك ما تبتغيه القوانين فإن وجدته سن فى صيغة جامعة مانعة وتسرى على الناس على سواء ولا تبديل لها . هذا ما نسميه قانوناً كما يقول «ديموستين» وإنما تجب طاعة القانون، لأن كل قانون هبة من حقوق الله وهو شرع شرعه الحكماء من الرجال وهو عقد مشترك بين أفراد المدينة وعليهم أن يلائموا بينه وبين حياتهم .

وكانت المدينة وآلهتها على سواء فى تنمية مواهب الفرد، ولم تقنع فى الأعياد العامة وما يأتى على المدينة من أحداث بأن يكون الإنسان شيئاً من دون البطولة . ولم يبلغ الفرد آفاق الجمال والبطولة وحيداً مرضاة لنزعات الغرور والأثرة، ولم يفعل الأثينى شيئاً قبل أن ترضى الآلهة ، وكانت أثينا هادياً وموئلا لآماله وقد أضاءت بحبها طموح النابهين «والوطن أحق بالتمجيد والتقديس فى عقيدتهم من الآباء والأمهات وأكبر منزلة عند

الآلهة وعند ذوى الألباب من الناس . ويجب أن يقبل الفرد من الوطن ما يدعو إليه الوطن كالجندى الذى لا يرتد عن موقفه رغم القتال والجراح » وكان على كل فتى أثينى أن يقسم هذا القسم إذا دخل الجندية: «لن أضيع شرف ذلك السلاح المقدس ولن أتخلى عن رفيقى فى القتال . سأقاتل فى سبيل آلهتى ودارى وحيداً أو مع الآخرين. لن أدع الوطن قليلا بل سأدعه أعز وأقوى مما أتيته . سأطيع الأمر الذى تمليه حكمة الحاكمين . سأخضع للقانون القائم ولما تسنه الأمة مجتمعة. فإن هم أحد بتحطيم هذه القوانين أو بعصيانها فلن أطيعه بل سأقاتل فى سبيلها وحدى أو مع الجميع وسأحترم شعائر آبائى . »

واليونانى كائن سياسى كما يقول «أرسطو»، وبهذه الفضيلة قدرت للمدينة ثروة من الرجال ، وتجمعت فى النابهين قيم ممتازة وهم فى حياتهم أمنع من الحصون ، وهم أسوة لخلفائهم تصيرهم مصائرهم إلى مجد المدينة ، لأن أرواح الأبطال فى عقيدتهم حراس وحفظة للمدينة . ولم يكن عجباً بعد ذلك أن تنزع هذه الأمة إلى آفاق لم يبصرها الإنسان فيما خلفهم من مدنيات. فالآلهة والمدينة كانوا يدعون الإنسان إلى سماء أسمى من الأرض والآلهة والمدينة . أوقدوا هذا القبس المقدس فى ضمير الإنسان فأبصر الإنسان أرجاء من المجد والخير والجمال .

لم يُنكب الإنسان بديا بالجهل والتضييع والهوان ، ولم يعش الإنسان مكتوفاً مغطى على بصره فلا يرى له وطناً ولا يدرى إلام يصير . واستغلتْ الأديان عليه كما يطيب نفسا بالظلام . لا يفهم الأثينيون هذا البطش الذى أورث الإنسان السقوط . فمن يعذب يأثم ومن يخوف يكذب . ثم يأتى مفكر بعد ئذ فيتخذ هذه الظلمات برهاناً على ما ركب فى غرائز الإنسان من إثم . فما كان الإنسان ملكاً فهوى ، وما كان عليه أن يكفر عن سيئاته حيا وميتاً . لكنّ الإنسان إنسان وكفى ، لو أطلق عقاله وحمل عن كاهله ما ورث من بغى السنين لارتد جميلا كما كان الأحرار النابغون فى الزمان السعيد . فالمدنيات المتعاقبة ألقت فى يقين الإنسان أنه عدم أمام الأبدية وصيرته حقيراً أمام الموت ، وأورثته احتقار الحياة القائمة ، وضحت به فى سبيل الدولة ، وبذلك خلقت فقير الهند كما يقول « تين » ، وخلقت الموظف المصرى والصينى وكاهن القرون الوسطى والرعية المحكومة فى الزمان الحديث. وتحت هذا البطش قضى على الإنسان أن يكون ضئيلا وأن يكون دورة فى فلك هائل لا يعرف كيف يسير . أما فى بلاد الإغريق فقد سخرت النظم فى سبيل الإنسان ولم يسخر الإنسان فى سبيل النظم . لم تجعل النظم غاية وإنما اتخذت النظم أداة ينمو فيها الفرد نموا كاملا متناسقاً ،

بل كان ما هو أحق من ذلك فلم يشعر الفرد بطلاق بينه وبين الدولة، فسعادة الفرد رهينة بسعادة الدولة وسعادة الدولة لا تنفصم عن سعادة الفرد ، وسعادة الفرد فى رضى الآلهة. والآلهة تستمتع بجمال الإنسان ونبله ، ولا أحب إلينا مما يقول الفيلسوف « رينان Renan »: « ظهرت فى التاريخ معجزة وهى اليونان القديمة . نعم منذ خمسمائة عام تقريباً قبل المسيح تم فى عمر الإنسان رسم طراز تام كامل من المدنية . فلما انبثق نوره دخل ما قبله فى ليل التاريخ فقد وُلدَ العقل والحرية حقاً ، وأشرقت طلعة المواطن والفرد الحر فى صفحة الحياة البشرية ، وأخزى هذا الإنسان الجديد بنبله وكرامته البسيطة كل ما سبقه من عظمة الملوك وجاههم، وبنيت الأخلاق على العقل وتجردت من خرافات الأساطير وصارت حقيقة ثابتة خالدة ، واطلع الإنسان أو كاد على حقيقة الطبيعة والآلهة ، وتجرد الإنسان من فزع طفولته ومضى بقلب مطمئن إلى مصيره ، وبنى العلم أى الحكمة الحقة، ولاحت فى أفق العلم للإنسان أحياناً قواعد الكون المادى وإن لم يستمسك بأهدافها يومئذ فإن مبدأها قد وجد . وإن « كوبرنك » و « جالليله » و « نيوتون » لم يفعلوا إلا أن يستخرجوا نتيجة أبحاثهم مما وجده اليونان .

أما فى الفن فيا إلهى ! فأى ثمر أثمروا وأى عالم من الآلهات

والآلهة وأى انقلاب سماوى ! اليونان وجدت الجمال كما وجدت العقل ، وقد صنع الشرق تماثيل من قبلهم كما وجد بعض بلاد الشرق من قبلهم سبيلا لأن تغنيهم عن تدخل الآلهة فى كل شىء .

ولكن الإغريق وحدهم اكتشفوا قوانين ثابتة للطبيعة ، واليونان وحدهم اكتشفوا سر الجمال والحق والنظام والمثل الأعلى ، وقضى على الإنسان من بعدهم أن يدخل فى مدرستهم ، وذلك ما فعلته روما من بعد وما فعلته النهضة وما سيفعله رجال النهضات المقبلة كلما تردت الإنسانية فى ظلمات الوحشية . فى هذه الساعة الحاسمة من تاريخ الإنسانية وجد سر الحياة « Zo Kahor » وهو الجمال ، وخاصة هذا المزيج العذب بين الجمال والخير « Zo Kahor Kayabor » يا إلهى ! ما أعجب هذا القول ! يومئذ استمد الإنسان النبيل من قلبه مبادئ النبل وصارت الحقيقة والخير والجمال قطب الرحى الذى تدور حوله حياتنا . وقد استأثر الإغريقى بالإيمان بالمجد والثقة واليقين فى المستقبل . والمجد شىء من خلق الإغريقى فحياة الفرد معدودة ولكن ذكراه خالدة وفى هذه الذكرى يحيا الإنسان حياته الحقة .

سقراط

(ولد سقراط سنة ٤٧٠ قبل المسيح ومات سنة ٣٩٩ — قبل المسيح)

لم يكن سقراط كأحد من رجال أثينا ، فى زمانه ، وكأن الأقدار قد فارقت بينه وبين قومه قصداً وعمداً . لقد باهت أثينا يومئذ بجمال بنيها ، وكان الجمال ديناً فى المدينة ، تولت إليه أفئدة الأثينيين جسما ومعنى ، وكان نبعاً للمصورين والمثالين يظهرون آياته فيما خلقوا من تماثيل وصور ، وكان غاية المفكرين الذين يردون الفضيلة إلى الجمال . وكان أساساً للخير وللحياة ... وتفرد الأثينيون بهذا الإدراك المرهف الذى يرد كل شىء إلى الجمال ، ولا يكاد « البربار » من غير الأثينيين يقدرون هذه الظاهرة حق قدرها .

وكانت الحاسة المميزة للعبقرية اليونانية هى حاسة الجمال التى صيرتهم فنانين يؤمنون بفنهم لحماً ودماً ، وأرهفت نفوسهم حتى تشابه ما أبدعوه فى كل شىء ، فأشبه شعراؤهم فلاسفتهم وأشبه فلاسفتهم مصوريهم ، وما كان غذاء لقلب « فيدياس »

كان نفسه غذاء لقلب« بيركليس » و « سوفوكل » و « سقراط » والنابغين من أبناء أثينا جميعاً ، ولا قبل لأحد بهذه الصور ما لم تقدر له حياة تقدس الجمال تقديساً . ونرى سقراط يسأل تلاميذه بعد غيبة عن المدينة عما عسى أن تكون قد أنجبت فى الجمال والفلسفة كالذى يرويه أفلاطون . قال سقراط : « قدمت عشية الأمس من معسكر « بوتيديا » فاشتقت بعد غياب طويل إلى أن أرد النواحى التى ألفت أن أغشاها . فقدمت ساحة « تاوراس » أمام معبد « بازيلليوس » ولاقيت هنالك فئة كثيرة من أصحابى ورأيت فيهم فئة لم أكن أعرفها . فلما أبصرونى قادماً حيونى من بعيد من كل مكان ، واستخف الفرح « شريفون » كعادته فمرق من بينهم حتى أمسك بيدى وقال : « ياسقراط ، كيف نجوت من القتال ؟ » وذلك لأن موقعة قد وقعت فى « بوتيديا » قبل أن أبرح العسكر لم تعلم المدينة من أنبائها سوى أخبارها الأولى . فأجبته : إن الأمر كما ترى . فقال : قد سمعنا أن موقعة رهيبة قدوقعت وأن كثيراً من أصدقائنا قد هلكوا . فقلت : إنك لم تسمع إلا صدقاً . فقال : وهل شهدت الموقعة ؟ فقلت : نعم شهدتها . فقال : اجلس وحدثنا ، فإنا لا نعرف الأمر كله عن بينة . ثم أجلسنى بجانب « كريتياس » ابن « كلايسخرون » فحييت« كريتياس »

وسائر الحاضرين وحدثتهم عما شهدت فى العسكر وأجبت كل سائل سألنى . فلما رويت ظمأهم من أنباء الحروب سألتهم عن أنباء المدينة ، فقلت لهم : ما أمر الفلسفة وما أمر شبابنا ، فهل نبغ نابغ فى الفلسفة أو فى الجمال أو فيهما معاً ؟ فنظر كريتياس صوب الباب فرأى فتية قادمين يتصارعون وكان من ورائهم زحام وجمع . ثم قال : يا سقراط أما عن الجمال فستشهد ذلك بنفسك ، إن هؤلاء الفتية الذين ترى إنما يتنافسون على حب من يعدونه أجمل أبناء أثينا اليوم ، وما أظنه ببعيد . فقلت : ومن عسى أن يكون هذا الجميل ومن أبوه ؟ فقال : إنك تعرفه حق المعرفة غير أنه لم يكن إلا طفلا يوم سافرت ولا ريب أنك تعرف « شارميدس » ابن عمى « جلوكون » . فقلت : نعم وربى إننى أعرفه وقد رأيته غلاماً وما أحسبه اليوم إلا فتى راشداً . فقال : سترى بنفسك كم نما ذلك الفتى . ولم يكد يفرغ من حديثه حتى دخل شارميدس، فقلت : إننى لست بحكم فى هذا الأمر ولست بميزان قويم فى الجمال وإن الشباب جميعاً جميل ، ولكن هذا الفتى قد أوتى جمالا بارعاً وإن رفاقه يحبونه كما أرى ....

ورأى الأطفال أنفسهم لا يصرفون أعينهم عنه حتى أصغرهم سنا وهم جميعاً يتأملونه كأنه تمثال جميل ....

ثم قلت : بحق هيرقل إن هذا الفتى لا يبزه أحد لو زدناه خَلَّة صغيرة . فقال « كريتياس » : وما هذه الخلة الصغيرة ؟ فقلت : لو أن له مع ذلك الجمال قلباً طيباً نبيلا » .

على حين يفتتن قوم سقراط بالجمال في كل شيء كما رأينا تريد حكمة الأقدار ألا تجعل لسقراط حظا من الجمال فى الجسم ... فهو أشبه ببعض الأحياء المائية . كان أفطس الأنف مبطوح العينين مكور الرأس خشن الهيئة ، لا يبدل عباءته فى الشتاء ولا فى الصيف ويمضى حافى القدمين ولا ينتعل إلا فى الأعياد الدينية ، وكان من وراء هذه الهيئة روح مفردة فى الجمال والعقل . والذين يتفكرون فى حياة سقراط يرونه طيعاً لقوة نفسية خفية متجبرة لا يستطيع أن يعصيها مهما أمرته ، وكان قومه يشهدونه مغرباً فى التفكير ممعناً فى الانصراف عما حوله غارقاً فى تأملاته فيسخر منه الجاهلون وكثير ماهم . لم يعرف جيل الشيوخ فى زمانه وجه الحق من حياة هذا الغريب ، ولم يفجأ أولئك الآباء إلا ما يردد أطفالهم فى بيوتهم عن قوة سقراط فى الإقناع والعقل . وقد ذكر تلميذه « إكزينفون » أن « أنتيفون » أحد السوفسطائيين قال ذات يوم لسقراط : « إنى أظنك ياسقراط عادلا ، ولكنى لا أظنك حكيما وأحسبك تقرنى على ذلك فإنك ، لا تكسب من تلاميذك مالا ومع ذلك

فإنك لا تتخلى عن عباءتك ولا عن بيتك ولا عن شيء مما تملك دون مقابل ولا بثمن دون ثمنها ، فكيف بك لا تقدر دروسك بمال وأنت تعرف قدرها؟ فأنت عادل لأنك لا يغريك الثراء ، ولست بحكيم لأنك لا تزن هذه الدروس بثمن.» فأجابه سقراط : « اسمع يا «أنتيفون» إنا نعد حكيما كل امرئ يكتسب صداقة الذين يحبون الجمال والخير ، ونسمي سوفسطائيين أولئك الذين يتجرون بالعلم فيبيعونه من شاء ، فأما من رأى إنساناً خيراً فلقنه ما يعرف من خير فقد اكتسب صديقاً ، ومن يفعل ذلك فقد فعل ما ينبغي أن يفعله الخيرون الطيبون ، أما أنا «ياأنتيفون» فأحب أن أمتلك أصدقاء صالحين وأن أعلمهم ما أعلم من خير وأن أرسلهم إلى من عسى أن يزودهم بالفضل ، ونحن نقرأ جميعاً كنوز حكمة السابقين وأبين لهم ما انطوت عليه حكمة الأقدمين من خير . فإن أصبنا خيراً وجدنا كسباً كبيراً بما يجني بعضنا من بعض من نفع » .

° ° °

وتجافى سقراط عن أن يرائي الناس مرضاة للناس ، واتبع سقراط قلبه فلم يحفل بشيء من دون الحق ، وعاش غريباً على الجاهلين الذين لم يستمعوا إلى حديثه . وزادهم عجباً أن اختار سقراط لرسالته الشباب من دون الشيوخ ، ولقي الشباب من

سقراط ما فتنهم من وفاء وصدق . وأصاب الظاهرين من شيوخ المدينة شرر من لومه فقد ضرج كبر يائهم . بأنياب وأضراس . وكانت مقاليد المدينة بين أيدى هؤلاء الشيوخ . وقد غلبت عليهم المنافع الذاتية وغابت عنهم منفعة المدينة العامة التى لا تصلح إلا بما صلح به أولها وهو الفضيلة . ولم يعترف بفضل سقراط إلا الخيرون من فتية المدينة . ولا تشرق شمس حتى يستضىء بنورها قوم ويعشى بضوئها قوم ولا ريب أن كثيراً من الأثينيين قد استهزءوا بهذا الرجل الغريب الذى لا يبهر أبصارهم بجمال ولا بجاه ولا بكذب ، وإنما تجرد عن هذا جميعاً وجاءهم بوجه قبيح . وحسب هذا الرجل أن يتكلم حتى يكون أجمل الناس خلقاً. وقد أقر تلاميذه المقربون بهذا السحر الفاتن وتردد إعجابهم على آذان آبائهم وأمهاتهم . إنه شبيه بصور « السيلين »[١].

«وإن سقراط لأشبه الناس بنماذج « السيلين » التى نرى فى مصانع المثالين والذين يصورهم المثالون وفى أفواههم مزمار ، فإذا

---

(١) أى بنماذج الشيوخ السكارى المنتفخة أوجههم من الخمر وتراهم ثملين وترى فى أفواههم مزماراً وهم أنصاف آلهة ولدوا من «بان» إله الفن ومن إحدى الحور . وهم آباء « باخوس » إله الخمر وهم رمز الحكمة والوحى والنبوة .

فتح باطنها تكشفت عن تماثيل صغيرة للآلهة ، بل إن سقراط أشبه بصورة « مارسياس » ، أى بزامر الناى . ولست تنكر يا سقراط أن بينك وبين هؤلا شبهاً فى ظاهر خلقك . ثم انظر كيف تشبههم فيما وراء ذلك . إنك متهكم ساخر فهل تنكر ذلك ؟ فإن لم تعترف فسآتى عليك بالشهداء . أتقول إنك لا تعزف على ناى ؟ بلى وربى ! إنك أفتن نغماً من مارسياس ، فقد كان مارسياس بحاجة إلى ناى ليسحر الناس بزمره وكذلك يفعل الذين يعزفون على مزماره اليوم . وهو الذى علم « أبولون » العزف على الناى . وألحان مارسياس إن عزفها عازف ماهر أو عازفة ما ، ردت الإنسان شبيهاً بالآلهة وأدخلته فى أسرار الجمال ، وذلك بأنها ألحان إلهية . أما أنت ياسقراط فالفرق بينك وبين مارسياس أنك لا مزمار لك ولكنك أوتيت سحره وفعلت فعله ببيانك الجميل . ونحن إذا سمعنا أخطب الخطباء لا نتأثر به فى شىء أما أنت ياسقراط فإن سمعك سامع أو روى كلامك راو مهما كان حظه من العلم اضطربت أفئدة السامعين وأخذت عليهم كل مذهب . سواء كانوا رجالا أو نساء أو فتية » .

ويعترف تلاميذ سقراط بسلطانه على نفوسهم وما يلقون حين يسمعون إليه من سحر فاتن ، فقد كان يعيش بينهم كالأطفال

ويتخلق بينهم بخلق البسطاء ، وكانوا يصارعونه ، ويجتذبون شعره بأظافرهم . وكان كما يقول أحد تلاميذه : « إذا خالط الناس تشبه بالأطفال والبسطاء ، وإن جد كشف عما فى قلبه . وما أدرى أيبصر الناس ما فى قلبه من صور ولكننى أبصرها وأجدها نفحة من نفحات الله وأراها كنزاً جميلا ثميناً فاتنا ولا أستطيع أن أعصى له أمراً .... »

• • •

هيهات إذن بين ظاهر الحياة فى صورة سقراط وبين ما تخفى هذه الصورة من حكمة . ولا ريب أن هذا النقيض بين ظاهر الأمر وباطنه جعل سقراط فريسة لحكم المتعجلين من الأثينيين والذين يسرعون إلى الحكم عن ظاهر الأشياء أما تلاميذه فلا يستطيعون دفعاً لسلطانه على قلوبهم كما يعترف بذلك « السيبياد » : « إننى إن سمعته ارتجف قلبى وجرى دمعى من آثار ما يقول وأرى كثيرين من دونى يفعلون ما أفعل. ولو أننى سمعت « بريكليس » أو سمعت خطيباً من الخطباء المشهورين فإننى أعترف بفصاحته ولكنى لا أجد فى فصاحتهم ما أجد فى كلام سقراط ولا يرتجف فؤادى من شىء ولا تثور نفسى على ما يقيدها من أسر ، ولكنى إذا سمعت سقراط — هذا المارسياس — آمنت أننى لا ينبغى

لى أن أعيش كما أعيش (ولست تنكر يا سقراط أننى أقول حقا وصدقاً) وما أحسبنى إن أصغيت إليه الآن بقادر على أن أدفع سحره وسلطانه عن نفسى وألا أجد منه ما وجدته من قبل. سيكرهنى على أن أقر بينى وبين نفسى أننى ناقص فى كثير من الأمر وأننى أغفل نفسى وأدبر أمور الأثينيين. وأنا أسد أذنى مكرهاً كالذين يمرون بجزر «السيرين» وأولى منه فراراً خشية أن أصحبه فلا أبرحه حتى أبلغ شيخوختى».

• • •

ولم ينج سقراط زماناً طويلا من رأى قاصر ظالم فقد رآه الأثينيون يمشى فى الأسواق فقيراً حافياً يجادل من يلاقى على السبيل ويفحم مجادليه بالحق، ويزيدهم خبالا أن هذا الإنسان الذى يقر بالجهل قد أنزل العلماء من صياصيهم ومرغ كبرياءهم فى التراب وعرَّى عن غرورهم وجهلهم. وكانوا ينقضون عليه كما يقول «ديوجين لايبرت» وكلما ضيق الخناق على مجادليه ضربوه واجتذبوا شعره واحتقروه ولكنه كان يصبر على أذاهم واحتقارهم وكان يهجرهم هجراً جميلا. ولو أن أحداً منهم رفسه عفا عنه وقال: «أولو رفسنى حمارٌ رفسته» وازداد الجاهلون ضلالا بما رأوا من امرأة سقراط فقد كانت تثور على رجلها ثم ترغى وتزبد وترميه بالماء. وكان يتقبل أذاها

عفواً رضياً ثم يقول : « أولم أقل لكم إن « كزنتيب » سترعد ثم تمطر » وكانت تتبعه فى الأسواق فتضربه وتشق عباءته عن ظهره فيثور له الناس ويودون لو يضربها ، ولكن سقراط كان يمضى هادئاً ويحدثهم أن الفارس يحب الفرس الحرون حتى إذا عرف أن يعبد ثورته هان عليه كل فرس بعده ، وكذلك أمرى . لقد أوتيت امرأة عنيفة جامحة فإذا صبرت عليها واحتملت أذاها هان على ما قد ألتى من الناس جميعاً .

• • •

واحتمل سقراط فى سبيل رسالته أذى أشد من سخرية العامة ، فقد عده « أريسطوفان » سوفسطائيا مفسداً لعقول الناشئين مبدداً لدين الأقدمين صارفاً لآمالهم عن سياسة المدينة . وكلا الرجلين كان يرمى إلى إصلاح واحد وهو الإبقاء على فضيلة الأقدمين ، غير أن الوسيلة مختلفة لأن الكوميديا القديمة كانت تحارب البدع المستحدثة فى نفوس الأحياء والناشئين بالهجاء . إنما يهجو أريسطوفان رذيلة الأثينيين ورذيلة الحاكمين منهم خاصة ، ويريد أريسطوفان أن يستمسك قومه بالمذاهب الأولى التى خلفت البطولة فى آباء الأثينيين ، ويريد أن يرد للتعليم القديم سلطانه ، وهو الذى أثمر ثمره يوم كرمت العدالة والحكمة فى أفئدة الناس « وكان لا يحل لطفل أن يهمس بصوته وكان

الصبية طيعين مخشوشنين منذ الصبا ، وكان صبية كل حي يبكرون فى صفوف منتظمة متراصة إلى معلم الموسيقى ثم يحفظون ما يعلمون من أناشيد . وكانوا حراصاً على أن يحافظوا على ما ورثوا عن آبائهم من نغم ومن يخرج منهم عن النغم الموروث هزوا أو لعباً انهالوا عليه ضرباً حتى لا تضيع آلهات الفن . وكانوا يذهبون بعد هذا إلى معلم الرياضة منصرفين بألبابهم إلى الرياضة كاملين لا يعبثون بأصواتهم ولا ينبذون قصداً بأجسامهم . وعلى هذه القيم شب أبطال ماراتون . »

ويريد أريسطوفان أن يتعلم الناس الفضيلة « اتخذنى أيها الشاب رفيقاً عن يقين فإن فعلت فستتجافى عن « الأجورا » وتكره أن تغشى الحمامات العامة وتستحى من العار وتثور إن سخر منك ساخر وتقوم من مقعدك إن أقبل عليك الشيوخ . ولا تنهر والديك ولا تجئ أمراً نكراً يشوه ما يزينك من حياء ، ولا ترمى بنفسك فى أحضان راقصة . ولا ترد على أبويك قولا . وستقضى فى ساحات اللعب زمانك وضاءاً مزهراً بدلا من هذه الثرثرة الجوفاء التى لا تغنى شيئاً عن أبناء هذا الزمان ، وبدلا من أن تدخل فيما لا يعنيك من الجدل والإسفاف . بل تعدو إلى الأكاديمية تحت ظلال الزيتون المقدس متوجاً بتاج من غصن لطيف أنت ورفيق عاقل من سنك ، وتتنسم خليا عبق

الزهور وورق الكافور الأبيض حين يتساقط وتستمتع بالربيع حينما يحف شجر « البلاتان » بـ «البانيليا» كأنما يفضيان بعضهما لبعض بسر . فإن فعلت ما أوصيك به وتفكرت فيه بقلبك فسيكون صدرك مليئاً أبداً ويكون لونك وضاءاً أبداً . »

° ° °

فالقصد مجتمع بين أريسطوفان وسقراط . ومع ذلك يصور أريسطوفان سقراط صورة البدعة المستحدثة والضلالة المتلفة لمجد الأولين . فهو فى رواية « السُحب » صاحب مدرسة تصرف التلاميذ صرفاً عن سنة الأقدمين ، وهم شاحبون معتلون قابعون يتفكرون فى حل ما لا يغنى من الأمر . ومن يقرع باب باب المدرسة يقطع على التلاميذ تيار أفكارهم . وقد سأل سقراط «شريفون» عن هذه المسألة : « كم قدماً من أقدام البرغوث نفسه يستطيع برغوث أن يثب ؟» لأن برغوثاً أكل شريفون من حاجبه ثم وثب إلى رأس سقراط . ويذهب أريسطوفان إلى أن سقراط قاس هذه المسافة قياساً عجيباً ، فقد أذاب شمعاً ثم جاء بالبرغوث فغمس قدميه فى الشمع حتى إذا برد الشمع على قدمى البرغوث فصار كأن بقدميه نعالا فارسية ، أخذ هذه النعال فقاس بها المسافة ومسائل أخرى من أشباه هذه السخريات . . ولا يكاد يكشف الستار عن مدرسة سقراط حتى يرى سقراط

جالساً فى سلَّة معلقة فى الهواء لأن الأرض تجذب إليها كل شىء حتى الأفكار – كما يتهكم أريسطوفان – ولا يستطيع سقراط أن يرقى إلى الأفكار السماوية حتى ينعزل عن الأرض ، ثم إن سقراط يعبد السحاب من دون آلهة المدينة، وسقراط سفسطائى يمشى فى الطرقات صلفاً وينظر بجانب عينيه ويمشى حافى القدمين . وهو محاور لا يجارى ويقلب الباطل حقا ويقضى بهذه السفسطة على سائر القيم الموروثة فى نفوس تلاميذه . وتلاميذه يوم يخرجون من مدرسته أهل لأن يضربوا آباءهم ثم يقنعوهم أنهم على حق فيما يفعلون .

° ° °

ومهما ضحك بعض الأثينيين من مذهب سقراط وسخروا من حياته فلا يعبأ سقراط فى شىء بهؤلاء الساخرين ، فقد عُرِف الأثينيون أيامه بالتعجل فى الرأى وصار الشعب فى هجاء أريسطوفان نفسه كالشيخ الذى ارتد طفلا لا ينفع لديه إلا المتملقون الكاذبون . ولكن سقراط عارض السيل واستمسك بالحق وحده وأعرض عن إرضاء العامة بتعليمه و بمذهبه فى الحياة. وإذا اختلف قوله عن غايات الأكثرين صمد لهم صابراً ، ذلك بأنه كان يحب الحكمة وهم يحبون أهواء العامة . والحكمة لا تتلون بهوى العامة وإنما هى صادقة مؤمنة بالحق . والخلاف

بين الذين يحبون أن يرضوا أهواء العامة وبين سقراط . إن هؤلاء متقلبون مذبذبون وسقراط ثابت لايتحول ، وقد عجب أحد محاوريه من مذهبه الذى جاوز طاقة البشر فقال له سقراط : إننى وإياك لعلى خلاف فيما نحب ، فإننى واله بالفلسفة وأنت واله بأهواء العامة من الأثينيين وقد شهدتك غير مرة لا تعصى لمحبوبك قولا رغم ما أوتيت من مقدرة ، بل أراك متردداً ذات اليمين وذات اليسار وأراك لا تقيم على رأيك فى المجامع السياسية إذا عارضك عامة الأثينيين ، ونراك تتحول فتقول ما شاءت لهم أهواؤهم ولا تستطيع أن تخالف « ليلى » وقولها . ولو أن أحداً عجب لما تقول مرضاة للعامة لأجبته — إن أحببت الصدق — أنك لن تقلع عن تضاربك حتى تقلع « ليلاك » عن أهوائها المتضاربة . فاعلم أنى من جانبى لن أسمعك غير هذا القول ولا تعجب أن ترانى أقول ما أقول ولكن قل للفلسفة « ليلاى » أن تقلع عما تأمرنى به . إنها تقول أيها الصاحب العزيز كل ما سمعتنى أقول وهى لا تتذبذب فيما تقول ، وهى التى تقول ما أدهشك مما حضرت الآن وما عليك إلا أن تكذبها فيما ذهبت إليه وهو أن الظلم أكبر الشرور جميعاً ، والذين لا يكفرون عما اقترفوا من إثم أولئك لهم عذاب وبيل . فإن لم تغير قولها فبحق الكلب إله المصريين ما أنت بمنسجم مع نفسك ولكنك تعيش

حياتك فى خلاف مع نفسك ، أما أنا ياعزيزى فقد أوثر أن أحمل قيثاراً مضطرب الأوتار مختلف الأنغام أو أن أكون على رأس « كوراس » فلا أستطيع أن أسيره ، وأوثر أن أكون فى جانب والناس أكثرهم فى جانب لا نتفق ولا نأتلف على أن أعيش فى خلاف مع نفسى وحدها وأن أقول غير ما أقتنع .

سقراط والتعليم الأثينى

كان اليونان فى سياستهم يعدون التعليم أساس مجد المدينة ، وهم هنالك يُعِدون الفرد لتحقيق مآرب الدولة ، لأن مجد الدولة معقود بنفوس أفرادها ، ولا يحمل الأفراد نفوساً كباراً ما لم يجدوا سبيلا إلى صور المجد والإيمان بجمال الفعال . بل ذهبوا إلى أن لكل حكومة نظماً خاصة فى التعليم : فالديمقراطية تعلم الأفراد على سواء ، والارستقراطية تعلم من تعدهم لحكومة الدولة تعليماً خاصا من دون العامة . وعلى المشرع أن ينظر إلى أية غاية تسير أمته ، وأن يلائم بين هذه الغاية وغاية التعليم . فقوانين « ليكيرج » ليست سوى دعائم لتعليم « اسبارطة » التى لم يكن لها مآرب سوى المجد العسكرى . فنظمت حياة الأفراد مذ كانوا أجنة فى بطون الأمهات ، وتعهدت الزواج كيما تنشىء للمدينة نسلا قويا . فإذا بلغ الطفل سبع سنين احتضنته الدولة ليعيش عيشة عسكرية ، ولا تدع الفرد لأبويه وللمقادير تختار له ما تشاء من سبل الحياة . فالفرد للدولة والدولة تعلم الفرد ليحقق السياسة التى رمت إليها آمالها . ووجدت حكمة

الأثينيين كيف تهيئ للأفراد السعادة فى التعليم دون أن يعوقها ذلك عن إدراك غايتها من المجد . التعليم الأثينى لا إكراه ولا عنت فيه . وإنما ينمو الفرد فينمو فيه عقله وحسه وجماله وقوته وهو يغنى ويلعب . ولم يغن ويلعب هباء من غير قصد إنما وضعت عند رنين الشعر ونشيد الأوتار ووضعت عند الصراع والسباق غاية الفرد والمدينة معاً : وهى عظمة الفرد والمدينة جميعاً . وفى سبيل هذا القصد سن « سولون » قانوناً يفرض على الآباء أن يعلموا أطفالهم الموسيقى والألعاب الرياضية . وقد نحسب أنهم رموا بهذا القانون إلى هدفين مستقلين يريدون أن تنمى الرياضة الأجسام وأن تهذب الموسيقى الغرائز والأرواح . ولكن أفلاطون يرى أن الرياضة والموسيقى قد فرضتا كلتاهما لغرض واحد وهو تهذيب الروح ، لأن الانصراف إلى الرياضة البدنية وحدها ينتهى إلى قوة جامدة عتية فيمسى الإنسان غشيما قد سدت عليه منافذ الإدراك الجميل . وحاسة الجمال إذا أهملت عميت كما يقولون. وأما من ينصرف إلى الموسيقى وحدها ويمعن فى طلبها دون أن تنمو عافيته وبأسه فسينقلب مرهف الحس هزيلا وتنأى عنه رجولته . وكلا الأمرين ضار بالمدينة لأن كيان المدينة معقود بخلال أفرادها : فإن كانوا لا يستطيعون شيئاً وراء البأس والشدة والبطش فستنتهى القوة الغاشمة

العشواء إلى أن يرتطم بعضها فى بعض وإلى أن تقضى أمور المدينة بالعنف والحرب . وإن كان أفرادها شعراء مغنين فلاسفة ليس بهم بأس فلا تغنى الموسيقى عنهم من السيادة شيئاً . ورأى المشرع الأثينى أن يجمع فى فرد واحد بين الشجاعة والجمال وأن يجعل الأثينى جنديا قويا وسياسيا حكيما معا . وهذا المزيج من القوة والحكمة إذا توفر لأمة ثم استطاعت أن توقد فى نفوس أبنائها جذوة حبها ، فقد ضمنت هذه الأمة أن تجد الجندى المستأسد الحامى إذا عدت عليها العوادى وضمنت أن تجد السياسى الرشيد الحارس الأمين . وقد أتيح لأثينا أن تنجب هؤلاء الرجال ... والمجد غذاء الفنون ... وهذا اللعب جد غايته المجد ... وهذه الموسيقى جد غايتها المجد . فالأثينى حين يلعب يبصر عند أقصى جهده صوراً محبوبة من المجد ، فهنالك تنتظره صورة الرجل الجميل وصورة الجندى المنتصر وصورة البطولة فى الأولامب ، وهذه الصور أنزلها الأثينيون منازل من التكريم والتمجيد صرفت إليها قلوب الناشئين . والآلهة تحب اللعب كما يقول « بندار » ، وكانت بلاد الإغريق تنصب التماثيل لأبطال الأولامب ويخلد الشعراء ذكرهم .

° ° °

وما أمر الموسيقى فى تعليمهم ؟ كانت غايتها أن تنمى فى

نفوسهم حاسة الجمال وتحبب إليهم القيم الإنسانية العالية . والمشرعون والمصلحون كانوا أحرص الناس على أن يسمع الطفل الموسيقى التى تتعهد الكرامة الإنسانية . ويريد أفلاطون نغمتين اثنتين : نغمة تعز الكريم إذا نزلت به الأيام وتمنعه من الهوان ، ونغمة ترد عنه الصلف والكبرياء إذا أقبلت عليه الأيام . وهو ينفى بعد ذلك من جمهوريته موسيقى الخمر والشهوات وموسيقى التوجع والأنين وكل ما قد يورث النفس السقوط ، وليس عجيباً بعد ذلك أن يحطم حاكم من « اسبارطة » قيثارة زيدت أوتارها خشية أن تغل بنغماتها أيمان الاسبارطيين فى الحرب ، وليس عجيباً بعدئذ أن يقول « دامون » معلم « بيريكليس » إن كل تغيير فى الموسيقى تغيير فى قوانين المدينة لأن القوانين لاتستقر حتى تستقر مبادئ المدينة وهذه المبادئ تتأثر بما يتعلم أفراد المدينة فى الخير وفى الشر . ومن أجل هذا يريد أفلاطون ألا يبقى فى مدينته فنان لا يصور الجمال والخير حتى لا يتعدى أثره إلى نفوس الذين تصير إليهم سياسة الدولة ، لأن القبح يسرى بقدر ضئيل إلى نفوس الناس من حيث لا يشعرون ثم يستفحل مرة واحدة ، كالذى يرعى كلأ وخيما قد لا يشعر بما فى كل قضمة من أثر السم حتى إذا تجمع أثره أتى عليه مرة واحدة. وأما صور الجمال والخير فهى أشبه بالنسيم إذا مر ببلد طيب

حمل فى أعطافه الصحة . . والنفس على ما شبت عليه فإن أنست القبح أتت القبح وهى لا تدرى ، وإن أنست الجمال أتت الخير من حيث لا تدرى .

◦ ◦ ◦

كانت الموسيقى أدباً أريد لغاية سياسية وهى خلق من تبنى عليهم سعادة المدينة ، وقد نعجب أن يولى الأثينيون التعليم أكبر ملكاتهم وأن ييسروه فيكون أحلى من اللعب وأن يردوا إليه ما يمسهم من حسنات وما يصيبهم من سيئات . فالمشرع عندهم معلم والحاكم عندهم معلم والحكيم عندهم معلم وهم جميعاً يرمون إلى خلق الفرد السياسى القوى الحكيم . وهذه العقول عرفت أن تجعل التعليم نشيداً يثير الخفى من قوة النفس ويبعث المطوى من صور الفضيلة وأن يسمو بالإنسان إلى أسمى ما فى الإنسان من معان . وكانت موسيقاهم بسيطة : « الناى » و « القيثارة » . وكانت هذه الموسيقى تصحب الطفل وهو يلعب وتصحب الصبى وهو ينشد الشعراء وتصحب الشاب وهو يصارع ويسابق فى ساحات الرياضة .

وبذلك اجتمع الشعر والموسيقى فى تعلم الأثينيين ، ولم يمجد الشعراء فى تاريخ المدنيات مثلما مجدوا فى أثينا ، لأن الشاعر فيهم ناصح يهدى إلى الرشد ، وهو مهبط الحكمة الإلهية

وهو الذى كشف الغطاء عن بصيرة الإنسان ، ومحا عنه حجب الجهل وعلمه الفنون وحبب إليه المجد... ولا ريب أن الشاعر قد حمل أمانة التعليم فى أثينا كما يريدها الأثينيون وهو أن يصير قومه أحسن حالا . ولم يجد الصبى أثراً للمجد أحب مما أنشده فى شعر الخالدين ، ولا يغنى الصبية شعر الشعراء ابتغاء معرفة يحفظونها وكفى ، وإنما كان من وراء هذا الشعر قصد سياسى وهو أن تبنى أفئدة الناشئين على صور من الفعال والمجد ، لأن ما يحفظ الصبى من أثر جميل قد يصحبه فيما يلقى من الزمان وكم صحب الشعراء والحكماء نفوساً إذا خفى الرأى وكانوا كبارقة الرشاد ، وكم عصم الشعراء قادة من الهزم وكم عصم الشعر نفوساً من الضيم . وقد أبقى شعراء اليونان آثاراً تحبب العدالة والحكمة ، وخلدوا صور البطولة والمجد ، وفى سبيل هذه القيم العالية سن الأثينيون قانوناً يفرض الشعر فى التعليم . وكانوا يعرفون هذا الجميل للشعر فجمع سولون شعر « هومير » فى كتاب — وكان سولون نفسه شاعراً ومشرعاً معاً — وعرف الشعراء غايتهم فى المدينة ، ويقول « أريسطوفان » على لسان الشاعر « إشيل » : « إن على الشعراء أن يلقوا ستاراً على كل سوء فلا يذكرونه على المسارح ولا يذكرونه على حال ، فكما يعلم المعلم الأطفال يعلم الشعراء الناشئين .. ومن أجل هذا

لا ينبغي لنا أن نقول شيئا من دون الخير » . وبهذه العقلية نفهم ما يقصه « بلوتارك » عن « السيبياد » إذ دخل صبيا على معلم فسأله عن كتاب لهومير فلم يجد هذا الكتاب لدى المعلم فصفعه وانصرف ! وبهذه العقلية نفهم ما يذهب إليه أفلاطون فى جمهوريته : فهو يريد أن تراقب الدولة الشعراء فلا تبيح لشاعر أن يصور بطلا يبكى وينتحب كما تفعل الضعيفات من النساء؛ لأن المدينة بحاجة إلى رجال حكماء أغنياء بنفوسهم أقوياء بحكمتهم يلقون نوازل الأيام ثم لا ينخزلون كما ينخزل العبيد والنساء . ولا يبيح للشاعر أن يصور الخوف من الموت ، لأن المدينة بحاجة إلى رجال أقوياء يؤثرون الموت على الضيم ولا يبيح لشاعر أن يتغنى بكؤوس الذهب والفضة ومتعة البطون واللذات . لأن المدينة بحاجة إلى رجال يؤثرون القيم الإنسانية العالية على الغنى ويؤثرون المجد على اللذات والهوى . والشعر والموسيقى قد سما بهما الأثينيون إلى منزلة لازمة لسياسة الدولة وسعادتها ، وهى أن توقد فى أفئدة الأثينيين حب الجمال والشجاعة والحكمة وسائر القيم الإنسانية الجميلة وتنهى إليهم حكمة الآلهة وآمال الصالحين . وقد تراهم بلغوا هذه الغاية مرحين فرحين فى أحضان الطبيعة لم يلقوا الإكراه فى شىء وإنما وجدوا الحب فى كل شىء . فالزهر المتفتح تحت قطرات الندى وبهجة

الشمس والنبع السلسبيل وصفاء السماء ووارف الظل لم تحرم من حضانتها الطفل الأثينى .

فى أحضان الطبيعة التى استمتع بها الإغريق فى كل شىء نمت أبدان أبطالهم طلقاء سعداء، وفى أحضان آلهات الشعر والموسيقى نمت أفئدة الإغريق وآمالهم وقدر لهم أن تشغف قلوبهم بعد هذا بما خلق عظمة أبطالهم وأن يشغفوا بما يهىء للإنسان أن تكبره المدينة ، وأن يجد السبيل إلى المجد . والنتيجة المحتومة التى تفرضها طبيعة الأشياء أن يسير الأثينيون على السبيل التى سار عليها آباؤهم يريدون أن يعلموا سر عظمة الإنسان وأن يتجاوزوا هذه الصور الخالدة التى رسمها الشعراء فى نفوسهم ووعتها صدورهم إلى كشف الغطاء عن هذه العظمة ، وكان الشعراء قد أضاءوا أفئدة الناس بالجمال وكان ضياؤهم مبصراً لا يكاد يُلقى على معنى إلا أضاءه ومكن للأثينيين أن يجدوا بأنفسهم أسرار الأشياء . وكان العلم حينئذ أن يجد المرء بما أوتى من نور معانى الأشياء ، وكانت سعادتهم أن يروا بنور عقلهم ما حملت عقولهم من صور القيم الإنسانية . العلم هو الفلسفة والفلسفة هى معرفة الفرد نفسه بنفسه ومعرفة سر مجد الإنسان . فتوليد المعانى الذى عرف به سقراط ونبوءة الآلهة التى تعظ الأثينى أن يعرف نفسه بنفسه ليست إلا تطورا طبيعيا

للتعليم الأثينى. ولم يفهم الأثينى التعليم على أنه حقيقة واقعة يلقيها معلم لمتعلم كالممثل الذى يحفظ دوره ويلقيه على المتفرجين وكفى. ولكن العلم أن يستنير العقل ويهتدى العقل بنوره إلى ضمير الأشياء وليس فى المعرفة ثمرة أشهى من الثمرة التى يجتنيها العقل بنفسه ، وهذه الثمرات أوقدت أفئدة الأثينيين شغفاً بالمعرفة، والمعرفة من أجل ما خلق الله من شيء كما يقول أفلاطون. وهذه المعرفة ستنحو فيهم نحواً أثينيا أى إلى حب الحكمة . والحكمة فى عقلهم جامعة للقيم الإنسانية التى تقوم عليها عظمة المدينة وعظمة الفرد السياسى .

منهج سقراط

ولم يفعل سقراط شيئا إلا طاعة لضمير المدينة ، وكان دعاء أثينا حيا فى ضمير سقراط فلم تطب له الحياة من دون هذا الواجب . وقد عصفت به هذه العاصفة من حب المدينة كأنها شيطان يصرفه كما يشاء ، فانطلق فى الأسواق يصور للناس ما ورثوا من صور الحكمة والعدالة والشجاعة والفتوة وتقوى الله، وانطلق فى الأسواق يستخرج ما فى مبادئ السفسطائيين من كذب وانطلق فى الأسواق يسخر من الذين يسوسون المدينة على مذهب السفسطائيين . وكان ضمير الأثينيين حينئذ يستقيظ فى نفوس الصالحين بزجر كالذى يقوله « يوريبيد » إنه من العار أن نسكت وندع الكلام للبربار . وكانت هذه الدعوة إلى مبادئ الخير والجمال قد أخذت على نفس سقراط كل سبيل فلم يستطع أن يدعها ويتبع سبيل من خلا من العلماء الذين قضوا أعمارهم فى كشف أسرار الطبيعة والأفلاك . وذهب تلميذه « اكزينفون » إلى أن سقراط لم يقنع بأن ينصرف عن العلوم الطبيعية ولكنه رمى علماءها بالخبال ؛ لأن من المجانين طائفة تخاف

مما لا يثير الخوف ، وطائفة لا تخاف مما يخيف ، ومنهم فئة لا تستحى أن تقول وتفعل ما تشاء، وفئة تعتزل الناس ولا تخالطهم، وفئة لا تقدس المعابد والصلوات ، وفئة تعبد الأشجار والأحجار وما تلقى على السبيل من أنعام . وكذلك يفعل الذين ينصرفون إلى دراسة العلوم الطبيعية ، فمنهم فئة ترى الكون واحداً ، وفئة تراه أكواناً ، وفئة ترى الأشياء جامدة ساكنة ، وأخرى تجدها فى حركة دائمة ، وفريق يذهب إلى أن الأشياء تولد وتفنى ، وفريق يرى أنها لا تولد ولا تفنى .

ولولا أن ألقت أثينا إلى أبنائها الصالحين أملا كان أدنى إلى ضمائرهم من كل شئ لحسبنا سقراط ظالما للعلوم الطبيعية ، فإن هذه العلوم قد فازت من الزمان بنتائج لو رآها اليوم سقراط لمحا عن حياته هذا القول ،ولكن حياة المدينة وسلامة المدينة صرفتا جهود سقراط إلى البحث عن فضيلة الإنسان وغاية هذا البحث هى سعادة الفرد وسعادة المدينة .

وكانت فلسفة سقراط مزيجا من الرياضة العقلية والموسيقى العقلية فلم يأت فتية أثينا بشئ لم يرثوه . كانوا قد ورثوا من الشعراء والزمان صوراً من القيم الإنسانية النبيلة وخليت فى خلايا أرواحهم ساكنة مطوية قد يثيرها الزمان إذا مسها الزمان . فجاء سقراط بعقل مثل يد المثال البارع وجمع فى نفوس مناظريه

وسامعيه ما تشتت فيها من معانى الجمال وجعل يقيم هذه المعانى فى ضمائرهم شيئا فشيئا بذوق المثال وصبر الفنان . وليس عجيبا إذن أن يحفظ الأقدمون عن تلميذه أفلاطون هذه الكلمة : « لو خلقت الحكمة فتاة لهام بحبها الناس جميعا » .

واتبع سقراط فى التعليم منهجا كمنهج الأثينيين فى الرياضة البدنية كأن يناظر صاحبه كأنما يصارعه فى حوار يتبع المنطق الدقيق ولا يحيد عنه ، ويفرغ من نتيجة إلى نتيجة ،كالمصارع القدير الذى ينتهى من نقطة إلى نقطة ويأخذ بتلابيب من يحاوره ويزج به من جهل إلى جهل وخاصة إن كان من الذين كسبوا بين الناس سمعة جوفاء ، وخاصة من كان منهم سفسطائيا أو تلميذ سفسطائى . فلن ينجو من يد سقراط قبل أن يتصبب عرقه وقبل أن تسقط كبرياؤه ويراه السامعون جاهلا مغرورا لا يدرك جهله . ولم يدّع سقراط العلم فى شئ مثلما ادعى الآخرون ، وكان بعد ذلك يصارع الشبان فى ساحة الرياضة صراعاً بدنيا ويتخذهم أصدقاء . فإذا حاورهم فى ما أراد أن يعلموا من القيم الجميلة قاد الحوار بدقة ونصب لهم الفخاخ فى المنطق ، ولم يكن بهؤلاء الفتية الناشئين من الغرور ما كان للمشهورين من رجال العلم والسياسة ، وكانوا إذا غلبوا فى حواره انقضوا عليه يعضونه ويجذبون شعره ويضربونه . ولم نبلغ أيام سقراط أن نجد العلم

الذى لاوطن له ، وإنما للعلم وطن يفرض على العلماء أن يولوا آمالهم شطره وأن يجعلوا له ثمرات عقولهم ، بل ألقت أثينا على بنيها أن ينفقوا فى سبيلها كل شئ، وكانوا أشد غيرة على مجد وطنهم منهم على مجد الآباء والأمهات ، وأنفقوا جهودهم فى سبيل المدينة ، وانظر كيف يؤدى سقراط بعض هذه الأمانة :

سقراط : ماذا دبرت لنفسك ؟ أتريد أن تبقى كما أنت أم تريد أن تصرف عنايتك لشىء تبتغيه ؟

السيبياد : هذه مسألة أشاورك فيها يا سقراط . ولقد تدبرت ما قلت ووجدت فيه مقنعاً . إن رجالنا السياسيين جاهلون إلا قليلا .

سقراط : وما معنى ذلك ؟

السيبياد : لو أنهم كانوا عالمين لكان لزاما على من ينازلهم أن يلقاهم بزاد من العلم وأن يعد لمصارعتهم ما استطاع من عدة . ولكنهم يأتون السياسة جاهلين ولا أرى ضرورة لزاد العلم وعنائه ، وأنا أعلم منهم وقد آتتنى الطبيعة ما لم تؤتهم من الفضل .

سقراط : يا إلهى ! ماذا تقول يا عزيزى ؟ ، إنه لا يليق بك ولا بخلالك هذا القول .

السبياد : ماذا حدث يا سقراط وعلام تلومنى ؟

سقراط : إننى أخزى لك ولحبى .

السيبياد : ولماذا ؟

سقراط : لأنك ترى أن عليك أن تنازل رجالا من بيننا .

السيبياد : فمن على إذن أن أنازل ؟

سقراط : وهل هذا سؤال جدير برجل يؤمن بنبله و كبريائه ؟

السيبياد : ماذا تقول ؟ أو ليس لى أن أنازل هؤلاء ؟

سقراط : أرأيت لو أنك توليت قيادة سفينة قادمة على قتال فهل تقنع بأن تكون أقدر بحارتها و كفى ، أم عليك أن تنظر إلى أبعد من ذلك وأن ترمى بنظرك إلى أعدائك الحق الذين ينبغى أن تبزهم ؟ أما أن تتفوق على أنصارك فهو أمر لازم لعلة واحدة وهو أن يطعيوك ولا يهموا بعصيانك، وهم إن آنسوا منك تفوقاً أطاعوك فى قتال أعدائك كلما أقبلت على أمر جميل جدير بك وبالمدينة .

السيبياد : هذا هو رأيى

سقراط : وهل يجدر بك أن تقنع بأن تكون خير جندك دون أن تضع أمام عينيك قادة أعدائك ودون أن تطمع فى أن تبزهم فأولئك هم غاية جهدك وأشغالك؟

السيبياد : ومن تريد بهؤلاء الأعداء يا سقراط ؟

سقراط : ألست تعلم أن مدينتا فى حرب لا تنقطع مع الإسبرطيين ومع ملك الفرس ؟

السيبياد : هذا حق .

سقراط : فإن كنت قد ألقيت فى أملك أن تسير أمور مدينتنا يوما ما فاعلم علم اليقين أن عليك أن تنازل ملوك الإسبرطيين وملوك الفرس .

السيبياد : إنى أراك تقول الحق .

سقراط : ولا ينبغى لك يا صديقى أن تقيس همتك وأملك بهمة « ميديا » مربى الديوك ومن شابهه من الذين يقبلون على سياسة المدينة وما تزال بهم مسحة من العبودية كما يقول النساء ، فهم لم يهذبوا ولم يخلصوا من ضعة أصولهم وما تزال بهم عجمة البربار وقد جاءوا يتملقون المدينة ولا يسوسونها ، ولا ينبغى لك أن تجعل قبلتك هؤلاء الذين ذكرت دون أن تعنى بنفسك ودون أن تعلم ما يجب أن تعلم .

السيبياد : إنه يبدو لى يا سقراط أنك على حق فيما تقول لكنى أعتقد أن قادة اسبارطة وملوك الفرس لا يختلفون شيئا عن الآخرين .

سقراط : لكن تدبر ما تقول يا عزيزى .

السيبياد : فيم أتدبر ؟

سقراط : ألست تعلم أن المصارع يتأهب لمصارعة الخصم الشديد المخوف أهبة قوية ويعنى بنفسه عناية فوق عنايته لو أن عليه أن يصارع خصما ضعيفاً هزيلا ؟

السيبياد : لا شك أنه يأخذ للخصم الخطير أهبة أعلى وأكبر .

سقراط : وما ضرك لو عنيت بنفسك عناية كبرى .

السيبياد : ليس فى هذا ضرر ولكن فيه الخير كل الخير .

سقراط : ولكن رأيك ضار فاسد إذا تأملت ظاهر الأشياء . إن من نعادى من الملوك ليسوا أدنى أصولا منا . وإذا اجتمع النبل الأصيل والتهذيب أتى ذلك بثمر جميل فاحذر أن تكون دون هؤلاء نسباً وحسباً وتعليما فإن ملوك الإسبارطيين لا يختلط نسبهم بدم ليس من دم الملوك من أهل هيراقليدس . وأما ملوك الفرس فإنهم أشد غيرة على أصولهم وأنسابهم ، ولا يخامر الشك أحداً أن الملك جاء من دم الملوك ، ويوم يولد من قد يؤول إليه الحكم يجعلون ذلك اليوم عيداً فى بلاد الفرس وفى آسيا جميعا . أما نحن يا لسيبياد فنولد ولا يكاد يشعر بنا الجيران كما

يقول الشاعر الهزلى . ثم يلقى الطفل بين يدى مربية ما هينة القدر . وإنما يربى ملوك الفرس خير من فى المملكة من خصيان وعليهم أن يعنوا بالمولود فى كل شئ ليجعلوه أجمل ما يكون ويعدلوا أعضائه ويقوموها ، وهم من أجل ذلك فى منزلة عالية من الاحترام ، فإذا بلغ الطفل سبع سنين تعلم الفروسية والصيد ، فإذا بلغ أربعة عشر عاماً تعهده من يسمونهم معلمى الملوك ، وهم أربعة يختارونهم من أفضل شيوخ الفرس ، فيختارون أعلم الناس وأحكم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس . فأما أعلم الفرس فيعلمه دين « زرادشت » أى يعلمه تقوى الآلهة ويعلمه أصول الحكم ، وأما أعدل الفرس فيعلمه أن يقول الصدق ، وأما أحكم الفرس فيعلمه أن يحكم شهواته أولا ولا يكون عبدا لهواه ، وأما أشجع الفرس فيعلمه ألا يخاف مطلقاً ولا يخشى شيئاً ألبتة ، ويعلمه أن الخوف يورث الذل .

أما أنت فقد ألقاك بيريكليس بين يدى معلم عجوز من العبيد ، وأستطيع أن أقص عليك حديثا آخر من آداب منافسيك وتربيتهم لولا

أنه حديث يطول . وأما مولدك وتعليمك أنت ومن شئت من الأثينيين، فلا يحفل بهما أحد إلا أن يشاء الله فيقدر لك حبيبا يعصمك . وأما إن أحببت أن تولى بصرك إلى الثراء والجاه والترف والثياب والعطور والرياحين والخدم والتبع وسائر ألوان رفاهية الفرس فستستحى حين تعلم أنك لست من كل هذا على شئ ، وأما إن أحببت أن تتأمل حكمة الإسبارطيين واعتدالهم وكبرياءهم وسداد أيديهم وشجاعتهم واحتمالهم للأعباء وشغفهم بالجهد والصبر والمجد فسترى نفسك طفلا فى جميع هذه الخلال ، فإن استمسكت بالمال وبدا لك أنك على شئ فى هذا الأمر فلا تنقم علينا . إن علمت أنك لست من هذا على شئ ، فإنك إن أحببت أن تبصر ثراء اسبارطة فستعلم أن ثراءهم قد جاوز ثروتنا كثيراً : فليس فينا رجل يملك أرضا تنافس أرضهم التى يمتلكون فى بلادهم وفى مسينا سعة وخصبا ، وليس فينا من يضاهيهم فيما يملكون من عبيد وخيل وأنعام . ولندع هذه الثروة جانبا فأما الذهب والفضة فليس فى بلاد الإغريق جميعا ما يملكه رجل

بمفرده فى اسبارطة ، وترى الذهب والفضة يهاجران منذ أجيال عديدة من جميع بلاد الإغريق والبربار إلى اسبارطة ولا يبرح الذهب والفضة أرضهم أبداً. فترى المال يقدم على اسبارطة ولا يبرح أرضها ، ومن أجل ذلك نرى أغنياء اسبارطة أغنى من الإغريق فى الذهب والفضة ونرى ملكهم أغناهم جميعا ، لأن الملوك يفوزون من هذه الأموال بنصيب وفير وتجبى لهم ضرائب كثيرة من أموال الاسبارطيين أنفسهم وثراء الإسبارطيين كبير إذا قورن بثراء الإغريق وثراء الإغريق لا يكاد يكون شيئا مذكوراً بجانب ثراء الفرس وثراء ملوكهم ، فقد حدثنى رجل أهل بالثقة من الذين زاروا مملكة الفرس أنه سار يوما كاملا تقريبا فى أرض خصبة جيدة واسعة ، وهذه الأرض يسميها سكانها « حزام الملكة » ، وقال إن هناك أرضا أخرى تدعى « برقع الملكة » وإن هناك فوق ذلك مناطق أخرى كبيرة جيدة خصبة وقفت على زينة الملكة وسميت كل أرض باسم جزء من أجزاء زينتها . فهب أن أحداً من الناس خبرّ امرأة كسرى وأم

الملك أن السيبياد بن دينوماخيس يريد أن يحارب
ابنها وخبرّها أن دينوماخيس امرأة من أثينا لا تملك
إلا خمسين « مينا » من الزينة وأن ابنها لا يملك
إلا أرضا لا تبلغ مساحتها إلا ثلثمائة « بسرى »
فستعجب كيف يتجاسر السيبياد على أن ينوى
محاربة كسرى ، وأظنها لا تجد لك سبيلا إلا بالدرس
والعلم وهما وحدهما السبيلان الجديران بالذكر فى
بلاد الإغريق . فإن علمت أن السيبياد شرع فى
هذا الأمر ولما يبلغ العشرين عاما وهو جاهل جهلا
تاما ويعصى محبه حين ينصحه أن يتزود بزاد من
العلم والدرس والمران ، ويرى نفسه أهلا للنزال كما
هو من دون حاجة لمزيد . ولا شك أنها ستعجب
وتتساءل ماذا رمى هذا الفتى بهذه الجسارة ، فإن
علمت أنك لا تعتمد إلا على جمالك وطول قامتك
ومنبتك وثرائك وذكائك الذى فطرت عليه فسترمينا
بالخبال والجنون يا السيبياد ، لأنها ترى لديها كثيراً
من هذه الميزات جميعا . وكذلك تفعل ملكة
اسبارطة إذا رأتك تقدم على أمر لا تأخذ له أهبته .
أولا يخزيك أن ترى نساء أعدائنا عالمات بما ينبغى

لنا أن نأخذ به أنفسنا فى بلدنا وأننا لا نعلم ما ينبغى لأنفسنا من العلم والمعرفة ؟ فأطعنى يا صديقى وأطع ما كتب فى « دلف » اعرف نفسك بنفسك . واعلم علم اليقين أن من ذكرت لك من الملوك هم منافسوك ، ولا تحسب من ذكرت لى من قومنا منافسين ، ولن تفوت هؤلاء الملوك إلا بالدرس والعلم والفن فإن ضيعتها فلن يكون لك ذكر عند اليونان ولا عند البربار ولا ريب أن حبك للشهرة يفوق كل حب .

• • •

ونعلم بعد ذلك أن العلم والفنون كانا عدة أثينا على أعدائها ، وأن غاية التعليم كانت حاجة لازمة لقوة المدينة وسعادتها . وكانت آمال الفلاسفة أن يتعهدوا الخير والجمال فى أفئدة الطامحين وأن يهيئوا للمدينة رجالا أقوياء ، وكانت الغاية التى نحت إليها أثينا فى علمها هى إدراك الجمال ، وكان الجمال سر ما آمن به الأثينيون من معانى الخلود فقد آمنوا أن الخلود معقود بالمجد ، والمجد معقود بما أبدع الإنسان من أثر . والآثار الخالدة لا تولد فى عقيدتهم إلا فى الجمال ، فالإنسان قد يخلد بعقبه من بنيه الذين يبقون ذكره من بعده وعقبه من فعاله التى تحييه على

الزمان . وأولو الفَعال والمجد خالدون أبداً فى أفئدة الرجال كما يقول « توسيديد » . وإذا قدر للناس أن تسمو بهم أشغالهم إلى آفاق الجمال فلا راد لهم عن الخير « ستعلم علم اليقين صدق ما نبأتك به يا سقراط إذا ألقيت بصرك على شغف الرجال بالمجد ، وستعجب من شططهم إذا لم تتدبر قولى ، وسترى الناس يركبون العجب من الأهوال والمكاره فى سبيل ما يبقى ذكرهم من بعدهم ويعقبهم مجدا لا يفنيه الزمان ، وهل ترى إليهم إذ ينفقون فى سبيل هذا الحب ما لا ينفقون فى سبيل أبنائهم ، وإذ يركبون الصعاب جميعا وإذ ينفقون أموالهم ويحتملون العناء ويفتدون المجد بأرواحهم . » وقد هدت الأثينيين سجية الجمال أن يعلموا أن العقول الخالقة لا تؤتى ثمرها إلا فى عالم من الجمال ؛ لأن العقول تلد الفكرة والحكمة وسائر القيم الإنسانية النبيلة ؛ والشعراء والمبدعون من الخالقين فى الفن آباء لما أنجبت عقولهم . وأسمى ما خلقت الأذهان من شئ هو ما نسميه « الحكم الرشيد » « والعدالة » . والخالدون الخالقون لا ينسلون ما حملت عقولهم إلا فى الجمال ، فإذا اقترب الإنتاج ترى أفئدتهم تهوى إلى الجمال ويشتهونه عن شمال ويمين ، حتى إذا قدر لهم أن يلقوا نفساً ذكية نبيلة استهوتهم ضعفين ، وهاجت الخفى من الفكر ، وأثارت المطوى من القول ، واسترسلت ألسنتهم بذكر النبل والقيم الإنسانية

السامية وما ينبغى أن يتحلى به الرجل الشريف ، وانقلب الإنسان يومئذ مؤدباً ومهذباً : بين يدى الجمال ينجب المنجبون آثارهم وبين يدى الجمال يتعهد المنجبون ما خلقوا . وبين الجمال وبين المنجبين قرابة ومودة لأنهم شركاء فى خلق أثر جميل لا يفنى . وهذه الآثار الجميلة أشد قرباً إلى الناس من أبنائهم . ومن يبصر آثار هومير وهزيود وسائر الشعراء المحسنين يحسدهم على ما خلقوا من آثار أبقت ذكرهم فى الخالدين . وإن أحببت فانظر ما أنجب « ليكورج » للاسبارطيين . ألم يعقب نظاما حافظا للاسبارطيين ولليونان جميعا ؟ ألستم تمجدون بينكم « سولون » بما شرع لكم من شرع . وترى الناس ينصبون الصلوات والمعابد لما خلد الخالدون من آيات العقول ولن يخلد اليونانى إلا أن يبدع فى الجمال أثراً لايفنى . ويُسر لذوى الأقدار أن يبدعوا آيات من المجد جميلة مثل آيات الفنون ، وآمنوا بعدئذ بخلود الذين يعملون الصالحات .
وكان اليونانيون يبتغون الجمال لغاية سياسية ، وحرصوا على أن ينهض الناشئون فلا تنمى أفئدتهم إلا بغذاء صادق من معانى الإنسانية الكاملة كيما تنزع هذه الأفئدة إلى الجمال وحده ، ورأيناهم يسيرون المرء إلى الجمال منذ الصبا ويحببون إليه كل جميل فى الحس وفى المعنى . ومن يجد سبيلا إلى أن يصهر أفئدة الناس بالجمال فقد قضى أن تكون الكرامة إيماناً بين الناس ، وقضى

ألا تكون للناس شيم من دون الكمال والنبل . وعرف الأثينيون الأمد الذى تنتهى إليه صورة الجمال المطلق « من هدى الناشئين رقيا إلى آفاق الحب ، وبصرهم آيات الجمال الواحدة تلو الأخرى ، واتبع طريقاً قويماً رأى عند محط الرحال جمالا ما أعجب خلقه . وفى سبيل ذلك الجمال المطلق هان ما يلقى الإنسان من بلاء لأنه جمال أبدى لا يزول ، لا مولد ولا نهاية له ، ولا يأتيه زيادة ولا نقص ، وما هو بجميل فى موضع وقبيح فى موضع ، ولا هو جميل عند قوم وقبيح عند الآخرين ، ولا يجسم ذلك الجمال بوجه ولا بيد ولا بهيئة ولا هو كائن فى شئ سواه كالأرض والهواء ، ولكنه كائن بنفسه وفى نفسه وهو نبع تستمد منه صور الجمال الأخرى. والفرق بينه وبين آيات الجمال الأخرى أنها تخلق وتموت أما الجمال المطلق فلا يأتيه النقص والزيادة فى شئ ولا يمسه الفناء فى شئ » .

ولم يقنع الأثينيون بأن يحرصوا على آيات الجمال فيما أبدعت عقولهم وفنونهم ، فالفضيلة لا تكون فضيلة حتى يأتيها المرء طائعا لداعى الجمال ، ومن أجل ذلك اقترنت فضيلتهم بالجمال فى كل شئ وسميت الفضيلة بالجمال والخير معا و كان ذلك غاية تعليمهم وتعليم سقراط كما رأينا .

سقراط والسفسطائيون

« قال أحد محدثى سقراط إننى حينما أصغى إلى رجل يجادل فى القيم الإنسانية الممتازة أو فى الحكمة بوجه عام وكان المتحدث رجلا حقا أرانى فوق ما يتصوره العقل من المتاع والطرب ؛ لأنى أشهد وئاما وانسجاما بين القول وقائله . وهذا الرجل عندى هو الموسيقى الحق الذى أبدع أجمل الألحان، ولم يبدعه فى قيثارة ولا فى آلة من آلات اللعب وإنما أبدعه فى مذهبه الحق فى الحياة ...

....

وأبدو حين أسمعه صديقاً للكلام وأتقبل منه ما يقول ، أما من يفعل ذلك غير فإنه يشق علىّ وكلما بدا محسناً للقول كان أشد إيلاما لنفسى وأبدو لمن يرانى كأننى عدو للكلام » . وذلك بأن تجار الكلام « أى السفسطائيين » كانوا عند أولى البصائر من الأثينيين أسوأ معلم قد قدموا على أثينا يعلمون ما يريد الأثينيون أن يتعلموه ، وسلكوا فى ذلك طريقاً غير التى رسمها الأثينيون الأولون لأبنائهم ؛ لأن المشرعين والمصلحين والشعراء والحكماء من أثينا سنّوا سنّتهم فى التعليم لتخلق القيم الحقة التى ترتكز عليها

سيادة المدينة ، وأمست حاجة الناشئين لمعرفة هذه القيم عطشاً شديداً . وأوقد الشعراء هذا التعطش للمجد فأقبل السفسطائيون يبيعون فى الأثينيين علم الكلام وكان قولهم خلابا جميلا يصور الحق باطلا والباطل حقاً ، وعلموا ظاهر القيم العالية دون أن يكونوا مثلا جديراً بما يقولون ، ولم يكن لهم سبيل سوى الربح من تجارة الكلام .

ورأى الشيوخ الأثينيون الذين ورثوا فى دمائهم وعقولهم حكمة الأقدمين ما قد يجره علم السفسطائيين من فساد فى إيمان أبنائهم بالمجد رغم النجاح البارق الزائف ..... وسنرى كيف يقف سقراط للسفسطائيين بالمرصاد كالكلب الأمين الذى يرد عن حظيرته ، وقف لهم عدوا ظاهرا وباطناً لأنه يريد أثينيين مؤمنين بالقيم التالدة والمجد كما آمن بها أبطال « ماراتون » ويريد أمة تؤمن حقاً ولا تؤمن ظاهراً ، وسنرى أن رسالته لم تكن شيئاً غير أن يلج بنور العقل فى نفوس الأثينيين إلى ما فى نفوس الأثينيين من معانى القيم الإنسانية العالية ، وكانت غايته كما رأينا أن يهيئ لأثينا رجالا صالحين وانظر بعض حديثه :

سقراط : هذا الضيف الغريب « يا انيتوس » حدثنى منذ حين أنه يشتهى أن يتعلم الحكمة وأن يتعلم هذه الفضيلة التى تقدر للناس أن يحسنوا سياسة ديارهم

وأوطانهم وأن يرفعوا ذكرى آبائهم وأن يعلموا كيف يلقون ويودعون قومهم وضيوفهم كما ينبغي أن يفعل كل رجل شريف . فانظر أى معلم ترى أن نرسل إليه هذا الغريب ليأخذ عنه هذه الفضيلة . أو لاترى أننا ينبغي أن نرسله للذين يدعون تعليم الفضيلة و يبيعون علمهم بضاعة لمن أراد أن يتعلمها لقاء أجر معلوم ؟

انيتوس : ومن هؤلاء الذين تعنى يا سقراط ؟

سقراط : إنك أنت تعرف هؤلاء الذين يسمونهم السفسطائيين .

انيتوس : تجنب هذا الفأل بحق هيراقليس يا سقراط وادع الله أن لا يمس الخبال أحداً من عشيرتى وأهلى وأصدقائى ، المواطنين منهم والغرباء ، فيلقى به بين أيدى هؤلاء المفسدين فإنهم وباء وفساد لمن يجاورهم .

سقراط : ماذا تقول يا انيتوس ؟ وهل خالف السفسطائيون سائر الذين يدعون إصلاح ما يسألهم الناس إصلاحه فلا يصلحون ما يلقى إليهم كما يفعل غيرهم وإنما يردونه أشد فساداً من ذى قبل وهم بعد هذا يسألون أجراً على هذا الفساد . إنى لا أكاد

أصدق ما تقول . إنى أعرف رجلا واحداً منهم « بروتاجوراس » جمع وحده من هذه المعرفة ثروة لم يجمعها « فيدياس » الذى أبدع أجمل التماثيل ، بل لم يجمعها فيدياس وعشرة مثالين معه ! إنك تحدثنا عجباً يا انيتوس ! أرأيت لو أن إسكافياً يصلح النعال البالية وراتقا يرقع الثياب القديمة ردا النعال والثياب أفسد حالاً مما أخذاها كانت عاقبتهما أن يهلكا جوعا ، ولا يستطيعان أن يخفيا فعلهما على الناس ثلاثين يوما ، على حين يخفى « بروتاجوراس » على كافة الإغريق أنه يرد تلاميذه أسوأ مما أخذهم ويخفى ذلك على الناس أربعين عاما .

ولم يكن هؤلاء السفسطائيون أثينيين ولكنهم وجدوا فى أثينا مغانم كثيرة ؛ لأن الشباب الأثينى الذى يشهد بلاغة الخطباء فى « الاجورا » وما تهيئ الخطابة للخطباء من مجد ومنازل فى المدينة تاق إلى هذا المجد وبهرته فصاحة هؤلاء المعلمين . وقد نرى فلاحاً أثينيا قدم بابنه يسعى إلى المدينة لأنه لم يستطع أن يكبح جماح ابنه بعد ما سمع من رفاقه ما أصابوا من علم ومتاع فى سماع الفسطائيين وأكره أباه على أن يقدم به إلى المدينة ليدرك من

العلم ما أدرك الآخرون. وقد صور أفلاطون صورة جميلة لظمأ فتية أثينا إلى المعرفة ، ونجاح السفسطائيين فى المدينة ، وهذه الصورة تخفى إشفاق الأثينيين على أبنائهم ومدينتهم من هؤلاء المعلمين .

قال سقراط : قدم على دارى « هبقراط » عند الفجر الأول وقرع علينا الباب بعصاه قرعاً شديداً حتى فتح له الباب ، فانطلق من فوره إلى داخل الدار ونادى بصوت عال : ياسقراط أنت راقد أم صاح ؟ فعرفت صوته وقلت له : ما بك يا هبقراط أجئتنى بنبأ سيء ؟ قال : لا ولكن جئتك بنبأ سعيد . فقلت : وما أقدمك علينا فى هذه الساعة من الليل ؟ فقال : جاء بروتاجوراس أثينا . فقلت إنه قدم منذ يومين . وهل عرفت ذلك الآن ؟ فقال بحق الآلهة إننى لم أعرف ذلك قبل عشاء الأمس ، ثم تحسس طريقه فى الظلام إلى سريرى الصغير وجلس عند قدمىّ وقال : إننى لم أكد أفرغ من العشاء حتى دخل علىّ أخى ونبأنى أن بروتاجوراس بالمدينة . وقد هممت بأن آتى إليك لولا الليل ، ولما أكد أطرح عن نفسى تعب النهار حتى هببت من من رقادى إليك . فقلت : وما عليك من هذا ؟ وهل تشكو من بروتاجوراس شيئا ؟ فقال : لا ولكنه استأثر وحده بالعلم لايريد أن يعلمنى إياه . فقلت : بحق « زيوس » آته مالا وأقنعه يردك عالماً . فقال : لو لم يكن غير ما تقول فلن أبخل بمالى ومال

أصدقائى عليه وإنما جئتك لتخاطبه فى أمرى فما زلت صبيا ولم أره قط وكنت طفلا حينما قدم المدينة أول مرة وأرى الناس جميعا يثنون عليه ويرونه أعلم الناس بالكلام... وما يمنعك أن تدركه قبل أن يبرح الدار فهو ضيف « كالليوس » ؟ فقلت : لا يا صديقى لم ينجل غبش الصبح من بعد فدعنا نروح ونغدوا فى ساحة الدار حتى ينجلى الصبح وما أحسبه يبرح الدار مبكرا .. وانطلقا يتحدثان وسط الدار يريد سقراط أن يمتحن ما قدم عليه صاحبه . فلو أن رجلا أخذ العلم عن طبيب لكان طبيبا أو عن مثال لكان مثالا فما تريد أن تكون بما تعلم عن بروتاجوراس ؟ فاحمر هبقراط خجلا وبدت حمرته على ضوء الصبح الذى أخذ ينبلج . وقال : أكون سفسطائيا. فقال سقراط : ألا يخزيك أن يعلمك الناس سفسطائيا ؟ وما يعلم السفسطائى ؟ فقال : يعلم صناعة الكلام . فقلت : لو أنك سألت موسيقيا أن يعلمك صناعة الكلام لعلمك صناعة الكلام فيما يعلم أى فى الموسيقى . فعمّ يعلمك السفسطائى الكلام ؟ فلم يحر هبقراط جواباً .

والسفسطائى ليس إلا تاجرا فى رأى سقراط يروّج تجارته ويتنقل بها فى البلاد ، وهذه التجارة خطيرة لأنها غذاء الروح والروح سعيدة أوشقية مريضة أو صحيحة بما تحمل من معرفة .

ولا ينبغى لرجل أن يقبل على معلم لا يعرف ما يعلم ولا يدرى أيكون سعيداً بهذا العلم أم يكون به شقياً . ثم يريد بعد ذلك أن يؤتيه ماله ومال أصدقائه . ثم قدم سقراط وصاحبه على دار « كالليوس » فظنهما البواب من السفسطائيين و كان قد ضاق ذرعا بأفواجهم. قال سقراط : فلما قرعنا الباب صاح من وراء الباب : « سفسطائيون أيضا ! ليس لدى سيدى فراغ من الوقت » وأوصد الباب بيديه . ورغم كره سقراط ومن شابهه من الأثينيين لهؤلاء المعلمين فقد فاز السفسطائيون بطائفة من أبناء أثينا الأغنياء ونراهم أحاطوا ببروتاجوراس ذات اليمين وذات الشمال ومن ورائهم آخرون تبعوا المعلم قد أغراهم بسحر صوته . ونرى بروتاجوراس يتحدث غادياً ورائحاً حتى إذا هم أن يدور انفرج التابعون شقين عن يمين وعن شمال كى لا يعترضوه فإذا مر التأموا وتبعوه يسمعون .

إنا نريد أن نتخذ من بعض هذه الصور برهاناً على أن التعليم الأثينى قد شغف الأثينيين حباً بالمعرفة ، وقد كسب السفسطائيون من أثر هذا الحب مالا كثيراً وكان علمهم ضاراً بالمدينة التى أسست على قيم أبنائها وما حملوا من فضائل . وقد خلق السوفسطائيون السياسى الذى يؤثر منفعته الخاصة على الصالح العام ، والسياسى الذى لا يتخذ من الفضائل السياسية إلا ظاهراً يلبسه ليزين للمدينة ما يريد . وإنهم خلقوا خطابة لا تقوم على الفضيلة .

سقراط وخطابة السفسطائيين

وكانت الخطابة سيدة الأمر فى الجمهوريات القديمة : فقد كان كل شىء فى أيدى الشعب و كان الشعب فى أيدى الخطباء كما يقول « فينيلون » . ولم يكن لهؤلاء الفتية من أبناء أثينا بد من أن يأخذوا بأسباب هذا الفن ليبلغوا مآربهم فى المجد وفى سياسة المدينة . وإنما يبلغ الخطيب فيهم قيادة المدينة ويحمى بالخطابة نفسه وأصدقاءه من بغى الظالمين وتكون له الصدارة فى كل شئ. و كانت منابر الخطابة قائمة فى المجامع السياسية وإذا نودى فى الأثينيين إلى أمر جامع جاءوا مجامعهم ومد من حولهم حبل أحمر لا يحل لأجنبى أن يتعداه ، واستخاروا الآلهة فيما يريدون، ثم ابتهلوا فجعلوا لعنة الله على من يشير عليهم بإثم ، ثم يقف مناديهم فينادى أكبر الحاضرين سناً ليدلى برأيه ثم يتعاقب ذوو الأعمار ليحمل الرأى حكمة الزمان وخبرة الشيوخ وليجنب الرأى غائلة الأهواء ، ثم يأتى بعد هؤلاء من شاء من الحاضرين . وهذه السنة عصمت أثينا من هوى الرأى أيام كان خطباؤها حكماء صالحين وأثمرت فى الخطابة آيات بينات ... وما كانت أثينا لتقنع

من خطبائها بشيء من دون البلاغة التامة الجميلة الرشيدة وقد ألفت أكمل الشعر وأجمل الصور وأدركت ضمير الجمال فى كل شيء . وقد رأيناها فى أيام سقراط تنقض اليوم ما أبرمت بالأمس ، ورماها من أحبها من بنيها بالتردد فى الرأى ، ولكن أثينا لم تستطع أن تدفع سحر هؤلاء الخطباء الذين أقنعوها بالأمس برأى وحملوها بالغداة على رأى ، وصارت الخطابة قوة للخير فى أيدى الخيرين وصارت أداة دمار فى أيدى المفسدين . وقد حرص المصلحون فى أثينا وروما بأن لا يلقى سلاح الخطابة لغير الخيرين ، وقد حفظ التاريخ عن « كاتون » الكبير فى روما تعريفا يعرف به الخطيب وهو أن الخطيب هو الرجل الشريف الذى يحسن الكلام » (Bonus vir peritus dicendi) ، ومعنى ذلك أن الجانب الخلقى فى الخطيب كان أكبر أثراً فى أنفس هؤلاء المصلحين من جانب الفصاحة ، فإن غلبت على الخطيب الفصاحة وانهارت فى نفسه الفضيلة كان شراً مستطيراً على أمته . وقد صور ذلك الأثر شاعر قديم فى روما ، فقد سئل شخص فى روايته : كيف ضيعتم هذا الملك الكبير ؟ فأجاب : لأن الله ابتلانا بخطباء جاهلين وغافلين . وإذا لم تعصم الخطيب حكمة وفضيلة تهاون بالحق وجعل منفعته الخاصة فوق منفعة بلاده ونصب نفسه حربا على معارضيه وانصرف أبناء الأمة عن الرأى المسير للخير

إلى تطاحن على منافع الدنيا ، وحينئذ لا تجد من فصاحة الخطيب بصيرة الربان الحريص على مصلحة السفينة ولا تسمع إلا رجالا ينهمون وينهَمون ، وتهيج الخطابة أحقادهم وتشتت الأحقاد ألبابهم وتعميهم آلام الخصام عن سبل الخير وتتردى سفينتهم فى صخر مهلك وهم لا يشعرون .

• • •

وقد شهد سقراط فى « الأجورا » سياسيين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، ويتشبهون بعد ذلك بالصالحين ويخدعون الأمة بالأمانى ويكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع . ورأى سقراط وبال أمرهم على المدينة وقد نراه يكره هذه الخطابة السياسية كرها وينفر منها نفورا ولا يتشبه بها فى حديثه الخاص والعام ويريد أن يعصم من آثارها الأثينيين ، فقد هاله ما رأى من شغف الأثينيين بالخطابة رغم ضلالها وأقبل على الأثينين أجانب يعلمونهم كيف ينصرون الرأى ونقيضه ، ويعلمونهم أن الحق ليس إلا فكرة نسبية عند كل فرد ، ويعلمونهم « النجاح » فى حياتهم الخاصة والعامة من كل سبيل. وكان أعلى هؤلاء المعلمين كعباً « بروتاجوراس » و« جورجياس » و « هيبياس » و كانوا يفدون على أثينا فى سفارات سياسية ، فيأتيهم أفواج من أبناء أثينا ليأخذوا عنهم فنونهم ولا يعفيهم سقراط

من سخريته بين آيات الإكبار التى يشملهم بها فتيان الأثينيين ولا يدعهم حتى يقوض أقدارهم فى نفوس السامعين ويعرى عن عجز هؤلاء المعلمين عن تعليم الفضيلة وينكر على بعضهم كل قدر لهذا الفن الذى يعتز به ويتكبر به على سائر الناس. فإن جورجياس يباهى فى أثينا بفن الخطابة الذى يفوق كل فن ويقدر لصاحبه المجد والسعادة ... وقد يباهى علم الصحة بأن يوفر للناس سعادة الصحة وعلم الرياضة البدنية بأن يوفر للناس القوة والجمال. ولكن الخطيب يستطيع أن يسير هؤلاء جميعا إلى ما يريد. ولم يفجأ جورجياس هو وسائر الأثينيين إلا أن يسمعوا سقراط يجهر بأن الخطابة ليست فناً من الفنون وهى أشبه شيء بصناعة الطبيخ التى لا تعد للناس سوى ما تشتهى بطونهم، ومن شاء أن يعد صناعة الطبيخ فنا حل له أن يعد الخطابة فنا؛ لأن الخطابة التى لا تقوم على الحكمة والفضيلة لا تبلغ إقناع السامعين حتى تتملقهم بما تشتهى أنفسهم. فهى صناعة للتملق والزلفى وليست فنا للحق والصدق.

ويتجاوز سقراط بعد هذا الحد إدراك العامة من الناس ويسمو إلى جانبه الإنسانى الرفيع الذى يحفزه الصدق وحده والحق وحده. فإن عامة الناس إن ظلموا أخفوا على الناس ظلمهم وجاءوا القضاء بمحامين يضللون القضاة ويخفون عليهم معالم الحق ويحملون

القضاة بفصاحتهم على أن يأخذوا جانب الكذب ويبرئوا الظالمين من طائلة العقاب . فإن نجوا بظلمهم فرحوا بظلمهم وقدروا الخطابة قدرا عاليا وآتوا الخطيب ثمنا بالغاً من جبهم وأموالهم . هذا ما يفعله عامة الناس الذين يؤثرون العافية على الصدق ولا يخافون أن يقيموا على ظلم . أما من أوتى قلباً ذكيا مؤمنا كسقراط فلا يؤثر شيئا على الصدق ولا يحفل بالخطابة إلا فيما تكشف عن جانب الصدق فى نفسه ، فإن اقترف إثما سارع فأقر بإثمه لدى القضاء كيما يكفر عن سيئاته ، واستحب العقاب الذى يطهر به نفسه على النجاة بالكذب ، وذلك عنده هو أجرَ الخطابة وحده . ولسنا نجهل أن سقراط كان فى ذلك وحيداً مفرداً وأن ذلك كان مذهبه الإنسانى الذى تفرد به على الناس . وكان يعلم أن أكثر الأثينيين قد لا يعتنقون هذا الإيمان فاحتفظ به لحياته ولمن عسى أن يؤمن به من الصالحين . وأما إشفاقه على قومه من غواية الخطابة فقد دفعه بيده ولسانه وآية ذلك ما يقصه تلميذه إكزنوفون .

جاء « جلوكون » بن أريستون يريد أن يخطب فى الشعب كيما تكون له الصدارة يوماً فى المدينة ، وكان يومئذ فتى لم يبلغ العشرين من عمره ، ولم يستطع أحد من أصدقائه ولا من ذويه أن يسكته والناس يجتذبونه من منبر الخطابة ساخرين ضاحكين ، واستطاع سقراط وحده أن يسكته رحمة به ورعاية لصداقة

« شرميدس » بن « جلوكون » ورعاية لأفلاطون أيضا . فلقيه ذات يوم فقال له : « ياجلوكون » أتريد أن تكون لك الصدارة فينا ؟ قال جلو كون : نعم يا سقراط إن ذلك ما أشتهى . فقال سقراط : إى وربى ! إن هذا الأمل أجمل ما سمت إليه نفوس الرجال فإن حققته فستحظى بما تريد وتنفع أصدقاءك وتبنى دار أبيك وتوسع آفاق وطنك ثم ترفع ذكرك فى أثينا وفى سائر بلاد الإغريق وقد تبلغ قدر « تمستو كل » فيمتد ذكرك حتى بلاد البربار وحيثما صرت ترمقك الأبصار . فلما سمع جلوكون هذا الحديث انتفخت أوداجه وطاب نفسا بالوقوف ، فقال له سقراط : لا ريب يا جلوكون أنك إن أحببت أن يمجدك الوطن فلا بد لك من أن تنفعه . فقال جلو كون : لا ريب فى ذلك . فقال سقراط بحق الآلهة يا جلوكون لا تخف علىّ شيئا وقل لى بأى شىء تبدأ بخدمة الوطن . فسكت جلوكون وظل يبحث فى نفسه عما عسى أن يبدأ به ، فقال له سقراط : لو أنك أحببت أن تعمر بيت صديق فستسعى إلى أن تغنيه ، وكذلك تسعى سعيك لتغنى وطنك . فقال جلو كون : هذا هو الحق . فقال سقراط : ولا شك أنك لا تزيد مال أثينا حتى تزيد دخلها . فقال جلوكون : لا شك فى ذلك . فقال سقراط : حدثنى إذاً ما دخل هذه المدينة ومن أين لها هذا الدخل ، ومن

الحلى أنك قد درست هذا الأمر كيما تستطيع أن تعوض النقص إذا لم تجد دخلها كافيا ، وكيما تستطيع أن تسد العجز إذا غاب الدخل . فقال جلوكون : بالله يا سقراط إنى لم أدرس هذا الأمر . فقال سقراط : إن كنت لم تدرس دخلها فحدثنى عما عسى أن يكون خرجها فلا ريب أنك تريد أن تلغى الزائد منه . فقال جلوكون : بالله يا سقراط إنى لم أدرس هذا الأمر . فقال سقراط : لندع ثراء المدينة ، ولكن كيف تريد أن تسوس المدينة وأنت لا تعلم دخلها وخرجها ؟ فقال جلو كون : ولكن نستطيع أن نغنى أوطاننا من خسائر أعدائنا . فقال سقراط : بالله ما أصدق ذلك لو كنا أشد مراساً من أعدائنا فإن كنا أضعف منهم فقدنا أموالنا الخاصة . فقال جلو كون : هذا حق. فقال سقراط : إنه ينبغى لمن أراد أن يحارب قوما أن يعلم قوته وقوة أعدائه حتى إذا رأى أمته أقوى جانبا من عدوها نصح لها بالحرب ، وإن آنس فيها ضعفا نصحها أن تتقى الحرب . فقال جلو كون : إنك تقول صدقا . فقال سقراط : قل لى إذن ما قوة أثينا فى البر وفى البحر وما قوة أعدائها . فقال جلو كون : بالله يا سقراط إنى لا أستطيع أن أقول لك ذلك شفاها . فقال سقراط : فإن كنت كتبت فى ذلك شيئا فأسمعنيه ، وسأصغى إليك بكل لذة . فقال جلوكون : بالله إنى لم أكتب شيئا .

فقال سقراط : لندع الحديث عن الحرب فلعلك لم تدرس فنونها لسعتها وأنت حديث عهد بالسياسة ، وأنا أعلم أنك فكرت من قبل فى أمر الدفاع عن أرضنا وأنت تعلم ما يكفى من جند الثغور وتعلم عدد ما يريد كل ثغر وتعلم إن أشرت أن تشير بزيادة القوى اللازمة وتسريح ما لا يلزم . فقال جلو كون : بالله لأسرحنهم أجمعين ، فإن اللصوص لا تحفل بهم شيئا . فقال سقراط : لو أنك سرحت حراسنا أفلا تظن أنك تفسح السبيل لمن أراد فيبعث بأرضنا ما شاء ، ولكن هل زرت بنفسك هؤلاء الجند و كيف علمت أنهم ساءت حراستهم ؟ فقال جلو كون : إننى أفترض ذلك . فقال سقراط ألا ترى أن ندع هذه المسألة حتى تعلمها عن يقين ولا نقنع فيها بهذا الافتراض ؟ فقال جلو كون : وربما كان ذلك خيراً . فقال سقراط : إننى أعلم أنك لم تزر مناجم الفضة حتى تستطيع أن تقول للأثينيين ما بالها لا تغل اليوم كما غلت من قبل . فقال جلو كون : إننى لم أذهب إليها . فقال سقراط : لا شك أنك لم تذهب إليها لأن الناس يقولون إنها فاسدة الهواء وذلك عذر جميل أن تدلى به إذا تشاور الأثينيون فى هذا الأمر . فقال جلو كون : إنك تسخر منى يا سقراط . فقال سقراط : إننى أعلم أنك لم تدرس هذا الأمر ، ولكنك درست الغلة التى تثمرها أرضنا ، ودرست كم تكفى هذه

الغلة لغذاء المدينة ، ودرست ما يلزم المدينة عاما ، حتى تكون على بينة إذا أصاب المدينة نقص فى غلتها ، وحتى تعلم إذا شاورتك المدينة فى الأشياء الحبوية اللازمة أن تنقذها وتعصمها من القحط . فقال جلو كون : إنك تسألنى أمراً عسيراً إذا شئت أن آخذ نفسى بكل ما تريد . فقال سقراط : وأخيراً لا يستطيع امرؤ أن يحسن القيام على داره حتى يعلم كل ما يلزمها وحتى يهيئ لها ما تريد . والمدينة قائمة على أكثر من عشرة آلاف بيت ومن العسير أن تقوم على إدارتها جميعا مرة واحدة فما بالك لا تحاول أول الأمر أن تعمر بيتا واحداً كبيت عمك وهو بلا شك بحاجة إلى التعمير ، فإن استطعت أن تعمر بيتا واحداً كان لك بعدئذ أن تسعى إلى تعمير بيوت الأكثرين وأن أنت عجزت عن أن تنفع داراً واحدة فكيف تطمع أن تعمر دوراً كثيرة ، كالذى يعجز عن حمل عبء خفيف ثم يحاول أن يحمل الأعباء الثقال . فقال جلو كون : لقد كان بيدى أن أعمر دار عمى لو أنه رضى أن يقتنع برأيى . فقال سقراط : أما وقد عجزت عن إقناع عمك وحده فكيف تحسب بعدها أنك قادر على إقناع الأثينيين جميعا وفيهم عمك ؟ ! فاحذر يا جلو كون أن تقع فى المخزيات وأنت تطمع فى المجد . أو لا ترى أنه ضرب من الخبال أن نتكلم فيما لا نعلم وأن نعمل ما ليس لنا به من علم . ثم تدبر أمر

هؤلاء الذين ترى والذين يتظاهرون ويقولون ويعملون ما ليس لهم به من علم فهل تراهم أهلا للحمد أم تراهم أهلا للوم ؟ وهل تراهم أهلا للإعجاب أم تراهم جديرين بالاحتقار ؟ ثم تفكر فى أمر أولئك الذين يعلمون ما يقولون وما يفعلون وأنا على يقين أنك ستجدهم أهلا للذكر الجميل فى كل أمر وتراهم موضع الإكبار والإعجاب بما يعلمون . وما كانت الشهرة المشينة والاحتقار إلا نصيب الجاهلين . فإن كنت تشتهى المجد والذكر فى المدينة فاحرص على أن تعلم كل العلم ما تحب أن تعمل فإذا بلغت فى العلم ما لم يبلغه الآخرون فخذ نفسك بعدئذ بسياسة المدينة ولست أعجب بعدها أن يتيسر لك كل ما تشتهى .

الأعمال والأيام

كان فى حياة سقراط جانب « أثينى » وجانب إنسانى . وقد بلغت أثينا هذا الجانب الإنسانى فيما خلقت عقول الأكثرين من بنيها : فقد تجاوزوا فى خلقهم حاجة العامة إلى آفاق الكاملين ، فلا يكادون يصورون شيئا حتى نرى الإنسان الحى فى كل أرض ولا يتحدثون عن شىء حتى تصغى إلى ضمير الإنسان النبيل فى كل دهر . ولكن هذا الجانب الإنسانى الكامل فى حياة سقراط إنما كان — لو تفكرنا — سببا إلى غاية عزيزة على الأثينيين وهى سعادة أثينا نفسها . فالإنسان كائن سياسى كما يقول أرسطو : فهو يعيش بآماله وأعماله لمجد المدينة ، ولا تسعد المدينة إلا بفضائل الصالحين من بنيها . وكانت غاية سقراط أن ينهض إلى خلق من يسميهم « حراس المدينة » — أى حاكميها — حراسا ساهرين على سعادة أمتهم .

• • •

وقد شغف سقراط حبا بمدينته وعاش لا يخبو فى قلبه هذا الحب ولا ينصرف عنه لناحية من نواحى المنافع الدنيا ، وقد استأثرت أثينا بأفئدة العالمين وآمال الصالحين من بنيها فخلّوا أرزاقهم وأغلى ما تلقيه الطبيعة فى أعناق الناس . واشرأبت أعناقهم إلى المجد الذى يسمو بأمتهم إلى الخلود . وقد رأيناهم يؤمنون بهذا الخلود إيمانا لاريب فيه ، وقرنوا هذا الخلود بما تصنع أيديهم من صور الجمال والخير . ولا سبيل لأمة أن تبلغ ما بلغت أثينا حتى يجاوز بنوها نطاق الهوان ويحطموا فى أنفسهم أغلال المادة ويمضوا مصعدين لايلوون على شىء من دون الكمال . ولو أنهم قنعوا بما يقنع به عامة الناس من رضا ومرت بهم الحياة دون أن تخرج الأنفس كنوزها من الجمال والعقل ما قدست أمتهم فى أفئدة العالمين . وما كان عبثا أن تحج الإنسانية العالمة إلى أثينا وتطأ مواقع أقدام الحكماء والشعراء والخطباء والمصورين ، فلم تقنع أثينا من بنيها الصالحين بشىء دون أن يحملوا نور الجمال والخير إلى العالمين . وقد طوت الأقدار أرض أثينا لحراب الغالبين غير مرة لكنهم إن تكشفوا ما تضمر هذه المدينة من كمال إنسانى قبعوا عند شعاعها كالطفل الجاهل السامع المطيع . وصغرت عليهم حرابهم وأعزوا هذه الأرض التى غطت بترابها

الأبطال والحكماء . وما كان عبثا أن يقول قائل منهم « إن أرواح الأبطال حراس للوطن » . وفى أرض هؤلاء الأبطال تخر الجباه سجداً للجمال المفرد العلم الذى سما بالإنسان إلى آفاق الخير والكمال ، وفى آثار هؤلاء الأبطال تمتد آمال الصالحين من كل أرض وفى كل زمان لتتلقى نور الإنسانية وتسمو بالإنسان إلى ما خلق له حقاً من الكرامة والخير ..

• • •

وكان سقراط يصغى فى ضميره لدعاء أمته التى تدعوه فى صحوه وفى منامه « خذ نفسك بالفنون الجميلة » ثم يتلو عليه هاتفها نداءه غير مرة « خذ نفسك بالفنون الجميلة » . ويحار هذا الحكيم فى تأويل هذه الأحلام فما كان سقراط بشاعر يمضى فى الشعر ، وما كان سقراط بموسيقى يمضى فى الموسيقى ، وما كان مصورا ولا مثالا ليخلق مثل ما خلق « فيدياس » وتلاميذه من الصور والتماثيل ... وقنع سقراط بأن يجعل الحكمة فنه الجميل الذى يعيش ويموت له ... فلم يعمل أبناء أثينا عملا مفاجئا متقطعا تمليه صحوة فى ساعة من ساعات العمر ، وإنما كانت أعمالهم أعماراً ، وكانت أعمارهم أعمالا يحيون ويموتون لأمل مفروض

لا تحيد عنه نفوسهم ... ومن وراء أعمارهم تمتد أيمانهم بمشاعل الخير والجمال إلى الناس .. حتى إذا قضت أمتهم فلم ينهض من بنيها ناهض يتلقى هذه المشاعل باليمين مكثت هذه الأيدى تمتد إلى الإنسانيه جميعاً وما تزال تمتد بنور الإنسانية إلى أن يشاء الله .

• • •

وكان الفن الجميل الذى وهب له سقراط نفسه حيا وميتا هو أن يعلم أمته فن السياسة الحق وكانت قد أغفلته ساعة غابت معالم الحق فى ليل المطامع والفتن ....

لا تصلح هذه السياسة إلا بما صلح به أولها وهو الفضيلة والعدل .... وستستمع إليه طائفة ولا تعى نداءه طائفة . وتغرب ساعة أثينا بعد ساعة سقراط ، ولكن حكمة الأقدار قد صيرت أثينا شيئا أشبه بأبطالها ، فلا يكاد يطويها الغروب حتى تشرق من ناحية أخرى شمس ليست أدنى بهجة من شموس الحياة ، وتضىء معالم السبيل للإنسانية جميعا . وتمتد آفاق أثينا فتحتضن آفاق الإنسان من كل جنس . وتكون حياة بنيها

الصالحين أسوة للصالحين . وتسمع نداءها ونداءهم فى الخالدين ....

• • •

« ونادى سقراط قومه فقال يا قوم إنه لا يصلح لسياسة أمة إلا الفاضلون ، والفضيلة الاجتماعية السياسية هى العدالة .. وهى جامعة لسائر الفضائل ، وما كان أمرها بيسير على كافة النفوس ، لأنها تكليف فى سبيل سعادة الآخرين »

وقد حسب أرسطو أن نداء سقراط لا يفسر معنى الفضيلة السياسية الحقة ؛ لأن الفضيلة إذا أخذت على علاتها قد تلقى فى أذهان الناس معنى الفضيلة السلبية التى تعتزل ولا تشارك فى سياسة الأمة . فليس يكفى أن يكون السياسى فاضلا كاملا دون أن ينهض إلى سياسة أمته ، وليس يكفى أن يقبع فى عزلة هادئة طيبة لا تتلاطم من حولها الأمواج ولا تعصف بها الأعاصير ، وأن ينعم هنالك بنعيم فضله وعقله فى صفاء السكون .... ولا قدر لهذه الفضيلة السياسية من دون نضال وجهاد .. حتى يجاهد المرء نفسه فى نشوة الحكم . ولا قدر لهذه الفضيلة السياسية من دون نضال فى سبيل الخير العام .. حتى يناضل المرء ما يلقى من أهواء

وما يعوقه من معوقات الأشياء والأحياء ، وحتى يحمل العبء حكيما عادلا صالحاً تقيا عالماً شجاعاً . وما تغنى هذه الفضيلة عن أحد إن اعتزل الأمر وخلى السفينة للمفسدين . « إننا لا نجعل بطولة الأولامب إلا للمصارعين الذين يصارعون فى ساحة البطولة بأنفسهم وما يكفيهم أن يكونوا أجمل الناس ولا أقوى الناس ولكنهم لايبلغون تاج البطولة حتى يصارعوا فى سبيل هذا التاج » .

ومن أجل ذلك فليس يحل لأحد أن يكون فاضلا حقاً حتى يولى فضيلته وكماله شطر صالحُ أمته .. وقد ظهر فى الفلاسفة من بعد سقراط مذهب المعتزلين الذين يجتنبون السياسة فى سبيل الحكمة ويؤثرون العافية على النضال .... وقد حسب كثير من الأثينيين سقراط من المعتزلة لأنه لا ينهض إلى منبر الخطابة فى « الأجورا » كسائر السياسيين ، ولام الأثينيون الذين لم يستمعوا إليه ولم يعقلوا قوله هذا المذهب العجيب ، إذ يرونه شيخاً كبيراً منبثا بين أطفال أثينا يقضى بينهم نهاره وطرفاً من الليل وخالوه مجنونا .. غير أن سقراط شاء أن يدفع السيل من منبعه كما رأينا وانبث بين الناشئين فى حياتهم الأولى ليعصمهم من سيئات المطامع وليصيرهم حراساً وحكاماً صالحين ، وكان بعد ذلك جندياً شجاعاً

لا يزلزل أركان نفسه خوف ولا يحرص على شيء من أنفال الحرب ويلقى إلى أصدقائه ما يقسم له من مغانم القتال . وكان إذا قضى لا يحسب حساباً لأهواء الأثينيين وإن غضبوا وإن سخطوا ، ولا يحكم إلا بالعدل وبما ينفع الناس ، وكان يمشى إلى الصالحين العاملين فيحرضهم على أن يحملوا أمانة السياسة كما يتحدث تلميذه اكزينفون :

فقد رأى سقراط أن شرميدس بن جلوكون يتهيب السياسة فلا يرشد أمته ، وكان أخا فضل وعلم بالسياسة. فقال له سقراط : حدثنى ياشرميدس ، أرأيت لو أن رجلا كان أهلا لأن يكسب تاج البطولة فى الأولامب وكان أهلا لأن يؤوب بالحمد ويرفع ذكر أمته فى سائر بلاد الإغريق ، ثم رأيته بعد ذلك لا يريد أن ينزل إلى مصارعة الأبطال فماذا عسى أن تعده ؟ قال شرميدس إنى أعده رجلا جباناً لا خير فيه . فقال سقراط : مما بالنا إن رأينا رجلا أهلا لسياسة مدينته قادراً على أن يوسع الخير عليها وأن ينال من وراء ذلك ذكراً ثم لا يفعل ذلك — ألا نعده جباناً عاجزاً لا خير فيه ؟ فقال شرميدس : هذا حق ، ولكن ما حملك على أن تسألنى هذا السؤال ؟ فقال سقراط : إنى أجدك كفئا

لأن ترعى أمتك رعاية صالحة ، وأجدك تتخلى عن سياستها ، وهو أمر محتوم عليك لأنك واحد من بنيها . فقال شرميدس : فيم عرفتني صالحاً لهذا الأمر ؟ فقال سقراط : عرفت ذلك في المجامع التي تجمع بينك وبين ساستنا ، فإن شاوروك في أمر أشرت بالسداد ، وإن أخطئوا في أمر عدلت أخطاءهم . فقال شرميدس : شتان ما بين ما نبديه في مجامعنا الخاصة من رأى وبين منازلة الخصوم في المجالس السياسية . فقال سقراط : إنه يستوى على العالم بالحساب أن يحسب وحده وأن يحسب بين الناس ، ويستوى على من يحسن العزف على القيثار أن يعزف وحده وأن يعزف في المحافل . ثم ما يزال به سقراط حتى يقنعه أن يدخل في حلبة السياسة كيما تسعد بفضله وعلمه أمته ، فإن سعدت أمته امتدت سعادتها إليه وإلى أصدقائه ... » .

وهذا الحديث دليل على أن سقراط كان يدعو إلى فضيلة إيجابية علماً وعملا ، فيحض الصالحين ويثبط الجاهلين ويحارب مواطن العلة في نفوس الأثينيين . وقد أثرت عنه عبارة ما تزال أصدق حكمة المعلمين « إن أكبر ما على المعلم أن يضيء

جذوة المجد فى نفس المتعلم . فإن علم الطلاب أنه لا خير لهم حتى يكونوا رجالا صالحين هان عليهم فى سبيل العلم كل جهد وبلغوا بأنفسهم غاية السبيل » . ولا سبيل لمعلم أن يوقد فى أفئدة المتعلمين جذوة المجد ، حتى يكون فى نفوسهم كاملا ، وحتى يكون عالماً مؤمناً ، وحتى يبصروا خلال حياته وعلمه شعاعاً من قبس المجد الذى تولى إليه آمالهم . وهيهات أن يبلغ هذا المجد كل معلم ، والذين بلغوا هذا المجد كانوا هداة ورسلا ، وكانوا بعد ذلك « ورثة الأنبياء » . وكانت أثينا تعد الشاعر معلماً ولا يكون الشاعر شاعراً حقا حتى يجعل أمته أمة صالحة . وكانت تعد الحاكم معلماً ، ولا يكون الحاكم حاكما حقاً حتى يصير أمته أمة صالحة . وكانت هذه غاية المعلمين فى كل فن . فليس التعليم بقاصر على طائفة تبيع معرفتها بمال قليل أو كثير ، ثم لا تستطيع أن تحيى قلباً ولا تستطيع أن تسمو بنفس ، ولا تستطيع أن تخلص لرسالتها إخلاص المؤمنين . كان سقراط لايبيع علمه بمال ، وكان مؤمنا برسالته خالصا لها لايريد جزاء على ما أنفق فيها سوى أن يبصر تلاميذه خيرين صالحين ، وإلا أن يستمتع بوفائهم لأن الصداقة الوفية الطيبة أطيب متاع الحياة .

وكان سقراط لا ينزل نفسه منزلة المعلمين الذين ينتظرون حتى يسعى إليهم تلاميذهم ، بل نراه يسعى إليهم سعى الصديق

إلى الصديق . فيغشى ساحات الرياضة ليلقاهم ويلعب كما يلعبون ، ثم يسوق اللعب الحكمة التى تزين أفئدتهم بعد ما تزينت أبدانهم بالرياضة واللعب . ومن شاء أن يهيئ السعادة لنفس هيأ لها بدناً كأبدان المصارعين وعقلا كعقول الفلاسفة . و كان ذلك مارمت إليه أثينا فى تعليمها ونرى سقراط يرد وتلميذه «فيدر» نبعا سلسبيلا فى مشارف المدينة ليقرآ كتابا بين أحضان الطبيعة.

سقراط : ... تقدم وانظر أين نجلس .

فيدر : ألا ترى هنالك شجرة « بلاتان » عالية ؟

سقراط : بلى .. وما شأنها .

فيدر : سنجد لها ظلا ظليلا ونسيما عليلا ونجد تحتها عشباً ننبسط فوقه .

سقراط : تقدم إذن .

فيدر : إننا قد بلغنا الشجرة .

سقراط : بحق « هيرا » إنه لموضع جميل وهذه الشجرة عالية باسقة ضخمة ، وشجرات « الاخترس » شجرات عالية ذات ظل ناعم وهى فى أكمل ازدهارها وتملأ الفضاء بشذى زهورها ، ويجرى من تحت «البلاتان» نبع جميل بارد ماؤه كما تحس ذلك قدمى ، ولعل هذا النبع قد نذر لبعض الحور أو « لأخيلاوس »

وأكاد أرى ذلك من هذه التماثيل الصغيرة . ونسيم هذه الأرض رقيق عليل وتسمع لديه ألحان « السيجال » تجاوب أنشودة الصيف المطربة . وأنعم ما فى هذه الأرض هو ذلك العشب المنحدر الطبيعى الذى يهيئ لمن ينبسط فوقه وساداً مريحاً لرأسه » .

...

ولا يقنع سقراط بأن يغشى ساحات الرياضة ليلقى تلاميذه بأن يصحبهم إلى أحضان الطبيعة الجميلة كما رأينا لينعموا وإياه بجمال النسيم وما يحمل النسيم من عبق الزهر ومن أصداء الهوام ، ثم يزودهم بعدئذ بحكمته ولم يخرج فى ذلك عن بساطة الصديق ، ولا يلقى تلاميذه بعلم مأثور محفوظ وإنما كانت معرفته «مذاكرة» . وأوتى سقراط مقدرة معجزة فى إحياء ما نسيت نفوس سامعيه من قيم الخير وأصول الجمال ، ولا يغمرهم بأثر محفوظ معلوم وإنما يسألهم وهم يجيبون دون أن يعتمدوا فى جوابهم على رأى محفوظ موروث . وشاء سقراط بذلك أن يحيى ما أغفل تلاميذه من معانى الفضيلة التى اعتزت بها أثينا من قبل ، وأقامها بالحوار على ضوء العقل .

« اعرف نفسك بنفسك » ذلك كان مبدأ مدرسة سقراط ،

أى استخرج ما بطن من صور الجمال والخير من نفسك . وعرف سقراط كيف يستخرج هذه المعانى مما كمن فى أفئدة سامعيه ، وعلمهم كيف يشعرون ويتفكرون بمنطق صارم شديد .

وكان يتخذ كل سبيل فى إغرائهم بالفضيلة ، وكان يحب أن يحفظوا قول « برودكوس » عن الفضيلة :

« إنه لمن اليسير أن نبلغ الرذيلة زرافات ووحداناً ... فسبيلها معبدة قريبة المنال . وأما الفضيلة فقد فرض الآلهة الخالدون من دونها عرق الجبين ، وسبيلها قائمة شاهقة عصية أول الأمر فإذا بلغنا شرفها رأيناها هينة يسيرة رغم عنائها . »

ويذكرهم بقول « أبيكاروس » : « إن الآلهة آتتنا الفضيلة لقاء ما ننفق فى سبيلها من نَصَب » ثم يمضى سقراط يلقى عليهم نبأ الأولين فى الفضيلة : فقد ذكر الحكماء أن « هراقليس » قد شب عن الصبا ووقف لدى الشباب لا يدرى ما يفعل ، فإن للحياة سبيلين لمن أراد أن يمضى فيها : سبيل الفضيلة وسبيل الرذيلة . فاتخذ مكانا قصيا لا يدرى ما يختار ، فأقبلت عليه امرأتان جاءته إحداهما تمشى على استحياء ، وهى ذات وجه حر نبيل وهى تمضى متئدة عاقلة ، وتلبس ثياباً بيضاً .... وأما الأخرى فهى رخوة غضة بضة تغطى وجهها بطلاء أبيض وتحمر خديها بطلاء أحمر لتبدو أجمل مما خلقها الله . تتخاطر فى مشيتها

متعالية لتبدو أعلى مما هى ، ولا تسبل جفنيها حياء ولا تكف عن النظر إلى نفسها تريد أن ترمقها الأبصار ولا تفتأ تنظر إلى ظلها.. أقبلتا إلى هراقليس فأما الأولى فقد سارت متئدة ثابتة الخطى وأما الثانية فقد أسرعت تهرول إلى ذلك الفتى، وقالت : «ياهراقليس.. إنى أجدك حائراً لا تعلم ما تختار فإن صحبتنى فسأمضى بك فى سبيل اللذات والهوى فلا تعنى بشىء من العيش ولا تهتم بحرب ولا تشغلك السياسة ، ولكنك تقضى زمانك سعيداً مستمتعاً بمتاع الطعام والشراب ولذة السمع والبصر وحلاوة اللمس والحس وشهوة الهوى وتستمتع بالفراش الناعم ، وستجد كافة هذا المتاع هنيئاً مريئا ، ولا تخف أن أسألك يوم ينضب معين هذه اللذات أن تنفق فى سبيلها هما ولا عناء .. ولكنك ستعيش على ما أنفق الآخرون من جهد ، ولا تتورع عن نفع يجيئك من ناحية من النواحى ، وأنا أهيئ لرفاقى أن ينالوا المنافع حيث كانت » .

فلما استمع إليها هراقليس قال لها : أيتها المرأة ما اسمك ؟ فقالت إن رفاقى يدعوننى « الهناءة » وأما أعدائى الذين يكرهوننى فإنهم يسبوننى ويسموننى « الرذيلة » . ثم جاءت الأولى وقالت : « وأنا أيضا أتقرب إليك يا هراقليس فأنا أعرف أبويك وأعلم نفسك منذ الصبا ، فإن سلكت طريقى فستبنى ما يمجدك ويبقيك ثم تجعل لى فى الصالحين ذكراً عاليا وبهاءا ونورا ،

ولست بباسطة لك فى مغريات المتاع ولكنى أقص عليك الأمر بالحق كما خلقته الآلهة ..... إن الآلهة لم تقدر لأحد مجداً من دون مشقة ولا عناء، فإن أحببت أن يبارك الله سعيك فيجب أن تعبده، وإن شئت أن يحبك أصدقاؤك فيجب أن تحسن إليهم، وإن أردت أن يمجدك وطنك فيجب أن تنفعه ، وإن ابتغيت أن يتمدح اليونان جميعا بقدرك فيجب أن تعمل عملا صالحاً ، وإن أردت أن تؤتيك الأرض ثمارها فيجب أن تثمرها ، وإن أردت أن تكثر رعيتك فيجب أن ترعاها ، فاتبعنى إذن ولا تتبع سبيل الشهوات » . واختارت الآلهة لهراقليس سبيل الفضيلة وجنبته سبيل الهوى .

عدالة سقراط

وقضى سقراط أكبر شطر من زمانه يبشر بفضيلة العدالة خاصة .. لأنها هى الأساس الذى تقوم عليه سعادة الحكم فى وطنه وتقوم عليه سعادة الأفراد فى نفوسهم ، وما فتئ يبشر بجمال هذه الفضيلة حتى سرى هذا الجمال إلى بيان أرسطو الذى يعد العدالة أم الفضائل جميعا ويراها شيئا جميلا فاتنا لا يضاهى جمالها « إصباح النهار ولا إمساء العشية » ، وهى الفضيلة التى تحقق سعادة من حولنا من الناس .. وفصل أرسطو أطراف هذه العدالة فصولا : العدالة الأخلاقية وهى جامعة الفضائل جميعا ، ثم عدالة القسمة وهى وقف مناصب الدولة على الأكفاء ، ثم عدالة التكافؤ وهى إيتاء كل ذى حق حقه ....

ولم يكن أرسطو بخالق مبدع لهذه الفصول ولكنه جمع ماتفرق على لسان سقراط فقد كان سقراط مبشراً وشهيداً ، وجعل نسكه وصلاته ومحياه ومماته للعدالة ، وذهب فى ذلك مذهبا لا يكاد يعقله عامة الأحياء فى كل دهر . إنما هو طاعة النفس للحق تطهيراً وزكاة للنفس حتى لا تقوم على إثم يفسدها ويأخذ عليها

سبل الجمال والخير . ويكاد لا يعقله إلا من زكت نفوسهم زكاة طيبة فلا يستحبون لذة الباطل على آلام الحق . ولا يكاد يعقله إلا الشهداء والأنبياء والصالحون . وحارت ألباب الذين يجادلونه فى الحق والعدل . إنما يجادلون سقراط بنفوس غلبتها شهوات السلطان والجاه ويجادلهم سقراط بنفس تطيع داعى الحق والصدق وتحتقر شهوات الحياة الدنيا .... ويحتدم بينه وبينهم جدال شديد يقتلع مذاهب تلاميذه من أصولها الأولى ويطرحها بين أيديهم هشيما فاسداً لا خير فيه ، وتلاميذه فى ظاهر الأمر يأتونه بما يؤمن به عامة الحاكمين فى أثينا فى ذلك الزمان . فقد آمن أكثر الحاكمين « أن الظلم من شيم النفوس » وأن العدالة شىء من صنع المفكرين وكفى ، وهى رياضة للنفس منذ الصبا حتى تدع النفس شهواتها الأولى وتتبع سبل التلقين والرياضة ، كالذى يروض الأسد صبيا فينتزع بالرياضة وحشيته الأولى ثم يستأنسه بالتعليم ، فالعدالة تعليم ورياضة (فى زعمهم) والظلم سجية أولى وغريزة أصيلة فى النفس . ثم جاءوا على ذلك ببرهان بين فوق طاعة أهواء النفس ، فما تتجافى النفوس عن المظالم إلا إشفاقاً من عقاب وخوفا من شريعة سنتها جماعة ما ، حتى يعيش أفراد هذه الجماعة فى سلام وحتى لا يمحق القوى الضعيف . والعدالة ليست (فى زعمهم) إلا حماية الضعيف من القوى بسائر

السبل المعارضة لسنة الطبيعة التى أباحت مظلمة الضعيف ، وآية ذلك عندهم أن راعياً لملك « الميديين » أوتى ذات نهار سراً عجيباً يخفيه عن أبصار الناس ما شاء ، فسولت له نفسه أن يأتى سائر آيات المظالم دون أن يقفه خلق أو يردعه ضمير . فقد زلزلت الأرض من حوله ذات نهار وألقت السماء مطراً شديداً وشقت صفحة الأرض ، فنظر ذلك الراعى فرأى فى ثغرة فى باطن الأرض جواداً من برنز ووجد فى جوف هذا الجواد جسد رجل ميت ولا كأجساد الرجال ، ووجد فى أصبع الميت خاتما فأخذه ومضى بعدئذ إلى حلقة الرعاة ، وكانوا يجتمعون ويتشاورون فيما عسى أن يبسطوا للملك من أمر عملهم . فدار برأس الخاتم حتى انطوى فى راحة اليد فخفى عن أقرانه لا يبصرونه وهو قائم بينهم ويتحدثون عنه كما يتحدثون عن غائب ، فعجب ، ثم طوى رأس الخاتم حتى ظهر فى أعلى اليد فبدا لهم . ولما آمن بسر هذا الخاتم الذى يخفيه إن شاء ويبديه إن شاء خرج فى وفد إلى الملك واقترف هنالك القتل والسلب والمظالم جميعا ولم يردعه من نفسه رادع . ولو أن كل امرئ قد أوتى قوة تعصمه من عقاب الجماعة ما حال بينه وبين المظالم حائل ، وأتاها طائعا لشهواته الأولى ...

• • •

وذهب أصحاب ذلك المذهب فى اقتناعهم بمذهبهم إلى شأو

قصى ، وهو أن الظلم أشهى إلى النفس من العدل ، وأن أخا المظالم سعيد وأخا العدالة شقى ، فحسب الظالم أن يبرع فى الظلم وأن يبلغ فى المظالم المثل الأعلى ، وهو أن يستلب العدالة ثوبها الجميل فيتزيا بثوبها أمام الناس فيخدع به الجاهلون ويلقوا إليه أعنة أمورهم ويأخذ نفسه بالقاعدة المشهورة (Paraitre et non être) يرائى الناس ولا يكترث بالحق، ثم يقترف بعد ذلك ما طوعت له نفسه من إثم حتى يبلغ مآربه ، فيكون له الحول والقوة ويشترى أصدقاء ويتألف قلوبا ويعد الناس ويمنيهم وينذر النذور للآلهة فيغفر له الآلهة ما تقدم من ذنبه وما تأخر ويتكاثر أحباؤه ويملأ ذكره الأسماع ويتزاحم الناس على بابه .

أما العدالة فى زعمهم فإنها تردى أهلها دار البوار ، وذلك بأن العادل الحق لا يزوّر أمر نفسه على الناس ، فهو قانع بجوهر العدل لا بمظهره ، ولا يحفل بحكم الأحياء على خلقه ، ويمضى بين الناس بسيطا لا ينم ظاهره عن شىء وقد يتشابه أمره على الجاهلين فلا يدرى الجاهلون أعادل هو أم ظالم ، لأنه خلع ثوب الرياء وعاش عيش البسطاء ، وقد يذهب رياء الظالمين بفضله لأنهم لبسوا ظاهر العدل ونزلوا فى أفئدة العامة منازل العادلين وما هم بعادلين فى شىء . والعادل الحق لا يأتى زورا ولا كذبا ، فإذا فرضت فريضة على العادل والظالم على سواء

أخى الظالم بعض ماله وقال العادل كل ماله ، فاحتمل من الأعباء أضعاف ما يحتمل الظالم ، وفاز الظالم بعد ذلك بالسمعة الطيبة وقد تتعرض صفحة العادل للوم اللائمين .

• • •

ولا ريب أننا نجتنب جانب الصواب إن حسبنا أن هذا المذهب كان جدلا مدرسيا وكفى ، وأن ذلك كان عبث الفارغين من الأثينيين ، وقد رُمى سقراط ظلماً بهذا اللوم كأنه خلىٌّ فارغ يجادل أبناء وطنه بما لا يغنى من الحق شيئا .... إنما كان سقراط يحارب وباء سياسيا تفشى فى أنفس الأكثرين من قومه ، فلم يكن لهم مأرب من دون الحكم ، واتخذوا إلى الحكم سبيل المظالم والأهواء .... كان حكام الطغام من بعد « بيركليس » يؤمنون أن العدل ليس شيئا سوى حق القوى على الضعيف ، وانقلب الأثينيون شيعاً وأحزاباً يتشيعون لزعماء لا يبتغون شيئا فوق أن يظهروا على منافسيهم ويستوى لديهم العدل والظلم والشرف والعار . إنما يمنون أمتهم الأمانى ويزجون بها فى كل ريح عاصفة . وكان هذا الخلق السياسى أشبه بالهزة النفسية التى لا تقف عند نفس بل تسرى فى الأمة إلى أصول الحياة فى كل شىء . فزعماء السياسة أمام كل عين ومثلهم فى الخير وفى الشر يعدو إلى نفوس الناس فى حياتهم ... وقد تسعد أمة فى حياتها

ما شرفت غاية رجالها السياسيين . والذى لا ريب فيه أن تياراً خفيا قائماً يسرى بين الحاكمين والمحكومين ، ولا نرى «سولون» متجنبا للنظر البعيد يوم لام ممثلا على مبالغته فى تصوير خُلق فى شعره ، فأجابه الممثل أن ذلك حديث خرافة بولغ فيه فتجاوز الصدق صورة لا فعلا . فقال له سولون : « أولا تدرى أن هذه هذه الصورة تسرى من حيث لا ندرى إلى قلوب الناس فنرى آثارها فجأة فى عقودهم ومعاملاتهم ؟ » .

• • •

كان سقراط بعد ذلك مصلحاً شديد الإحساس بكل ضلالة تجتاح أفئدة الحاكمين ، ولم ينازلهم فى مطامعهم ، بل أحب أن يتقى الوباء وأن يعصم المدينة من أساسها ، فانصرف يعلم الناشئين الذين لم يحتملوا أعباء الحكم من بعد حتى إذا قدر لهم أن يحملوا الأمانة يوماً كانوا أخياراً عادلين . والذين آمنوا من الأثينيين بأن العدالة هى حق القوى على الضعيف لم يعدموا حجة يحتجون بها « وأنا أعتقد أن الطبيعة نفسها أملت أن من العدل أن ينال القوى نصيبا أكبر من نصيب الضعفاء . ولا خلاف فى هذه القاعدة فى كل مكان بل نرى ذلك سنة فى الأنعام والإنسان على سواء ، ونرى ذلك فى المدينة وفى أبناء الأسرة نفسها . إنما يملى العدل أن يحكم الصالحون العاجزين وأن يغنم القادرون حظا

من الأموال والثمرات أكبر من نصيب الضعفاء ، وإلا فحدثنى بأى حق حمل كسرى على اليونان بجنده وحمل أبوه من قبله على بلاد « الاسكيت » ، ولا تكاد تحصى أشباه هذه الأمثال .. ولا ريب أنهم قد أطاعوا طبيعة العدل نفسها وهو ما يمليه قانون الطبيعة نفسها ، وقانون الطبيعة قد يخالف ما وضعنا لأنفسنا من قوانين ، فإنا نأخذ من سبقنا فضلا وقوة ونهذبه صبيا بالإيحاء والإغراء والتمائم ونروضه كأشبال الأسود كما يشب طيعا رضياً ذلولا ، ونلقنه العفة والمساواة ونعلمه أن ذلك هو الجمال والخير ... ولكن دع أحداً من أولئك الموهوبين يشب عما ألقينا فى عنقه من طوق ويرم القيود والأغلال ويطرح تمائمنا ورقانا أدراج الرياح ويعص سائر قوانيننا المخالفة للطبيعة ، فحينئذ يمسى طاغية مستبداً فينا من كان من قبل عبداً ذلولا ، وحينئذ نرى قانون الطبيعة جهراً كوضح النهار ، وإخال أن « بندار » أفصح عن ذلك الرأى فى قصيدته التى يقول فيها :

« القانون الذى أوتى ملك كل شىء فى حياة الأحياء والآلهة الخالدين جميعا والذى شرع للقوى أن يصير كل شىء بيده العليا . »

فما يفعل سقراط فى تصحيح هذ النفوس التى فتنت بشهوة الحكم ولا ترقب فى سعادة المدينة إلاً ولا ذمة ؟ إنما يناضل بما

أوتى من عقل وقوة ، فيقول لصاحبه وهو يحاوره :

سقراط : دعنا نستذكر ما قلت أنت « وبندار » عن هذه العدالة الطبيعية . أو لم تقولا إن الطبيعة قد أباحت للقوى أن يغتصب مال الضعفاء ، وأحلت للقادرين أن يحكموا العاجزين ، وأملت أن يكون للقادرين قسط فى الثمرات والأموال أكبر من نصيب الضعفاء. فهل تراك قلت شيئا غير هذا أم ترانى على حق فيما ذكرت ؟

كالليكلس: أجل إننى قلت ذلك وأكرره .

سقراط : قل لى بادئ الرأى أتسمى القادر والقوى باسم واحد، لأنى لم أستطع أن أفهم عنك ما تقول ، وهل تعد القادرين أقوياء وترى أن على الضعفاء أن يطيعوا الأقوياء ، فإن ذلك ما قد فهمت حينما سمعتك تقول إن العدالة الطبيعية أحلت للدول الكبرى أن تغتال الدول الصغيرة لأنها قوية وقادرة ، وإن القوى والقادر والصالح شىء واحد لديك . أم ترى أن يكون الإنسان صالحاً وهو نفسه عاجز وضعيف ، أو قد يكون الإنسان قوياً وهو نفسه ضعيف ، أم هل تعرف الصالح بتعريف غير تعريف القوى ؟

بين لى بربك ما تفرق به بين تعريف القادرين والأقوياء والصالحين .

كالليكلس: إننى أقول لك قولا بيناً : إن القوى هو القادر والصالح .

سقراط : فالأكثرون عدداً هم إذن أقوى فى الطبيعة من الفرد ، أو ليس كذلك ؟ فقد أسلفت أنت أنهم يسنون القوانين للفرد .

كالليكلس: ولم لا ؟

سقراط : فقوانين الأكثرين عدداً هى قوانين الأقوياء .

كالليكلس: نعم .

سقراط : وإذن فهى قوانين الصالحين ، لأن الأقوياء والصالحين شىء واحد فيما زعمت .

كالليكلس: نعم .

سقراط : أولم تقل منذ حين إن الأكثرين عدداً يعدون المساواة عدلا

كالليكلس: بلى ، إن ذلك ما يعتقده الأكثرون .

سقراط : وعلى ذلك فالمساواة عدل ولا فرق إذن بين القانون الموضوع وقانون الطبيعة .

* * *

حينما ينتهى سقراط إلى أن يسقط خصمه فى مثل هذه المناقضة يحتدم بينهما الحوار ويحمى وطيس النضال ويشتد بعضهما على بعض فى الصراع ، وتتساقط حجج خصمه بين هزو السامعين وتسقط فى أعين السامعين هيبة خصوم سقراط . فانظر كيف يألم كالليكلس من عثراته .

كالليكلس: إن ذلك الرجل لا يقلع عن سخافته . قل لى يا سقراط : أولا يستحى من كان فى سنك من أن يلعب بالألفاظ ، فإن بدل أحد كلمة مكان أختها حسبت ذلك غُلباً ، فهل رأيتنى أفرق بين الأقوياء والصالحين ، وهل لم أحدثك من قبل أن الأقوياء والصالحين شىء واحد لا فرق بينهم ، وهل حسبتنى أذهب إلى أن عدداً من العبيد والمتشردين الذين لا قوة لهم إلا فى أجسامهم يستطيعون أن يجعلوا من قولهم شريعة يسير بها الناس ؟

سقراط : أتقول ذلك يا كالليكلس أيها العالم العارف ؟

كالليكلس: نعم إنى أقول ذلك .

سقراط : ولكنى أيها العزيز قد فهمت منذ حين بعيد ما عسيت أن تسمى بالأقوياء ، غير أنى سألتك لأكون على بينة جلية مما تريد ، وأنت لا تعد رجلين خيراً

من رجل ولا تعد عبيدك خيراً منك لأنهم أقوى ساعداً منك . وعلى ذلك فتعال إلى المسألة من أولها وقل لى ما ذا تعنى بقولك الصالحين إن كنت تفرق بين الصالحين والأقوياء ؟ ثم إن عليك أيها الصديق أن تعلمنى هوناً ما حتى أستطيع أن أقنع بما تقول .

كالليكلس: إنك تلمز بالقول .

سقراط : لا وحق « زيتوس » الذى كثيراً ما شبهتنى به لتسخر منى ، ولكن قل لى كيف تعرف الصالحين ؟

كالليكلس: إنهم الأفضلون .

سقراط : إنك ترى بنفسك أنك تقول كلمة مكان أختها وأن ذلك لا يوضح من الأمر شيئا ، فهل ترى أن من تسميهم بالأقوياء والأفضلين عقلاء وحكماء عالمين أم تراهم شيئا غير ذلك ؟

كالليكلس: هم عقلاء عالمون ولا إبهام فى الأمر .

• • •

ويشتد ساعد سقراط فيرمى خصومه رمية المؤمن للكافر وتجده صارماً متهكما ساخراً ، وتتجاوز رميته محاوريه إلى ما يهدد وطنه من شر سياسى ، وكأنه يتحدث إلى الطامعين من الحاكمين وإلى المتوثبين إلى حكومة لا تبسط العدل بين الناس ولا تحرص

على شيء كحرصها على المنافع الذاتية العاجلة ، فإذا بلغ الحاكمون مناصب الحكم بالدهاء أو بالذكاء استمرءوا مال الدولة واختصوا أنفسهم بمغانم كثيرة وطابت لهم اللذات وخرجوا من هذه الثمرات العامة بنصيب الفاتحين . ولا يطيق سقراط أن يستبيح الحاكمون حرمات الدولة ، فيطلقوا أيديهم فى خيرات الجماعة ، لا يرقبون فى الجماعة رحمة ولا شفقة ، وينفقون مال الدولة فيما قد يكسب الحاكم وحده ما يشترى من الحمد وما لا ينفع الأمة شيئا . ويشفق سقراط من أن يسرى مثل السوء إلى أفئدة الناشئين فتشرئب أعناقهم إلى مغانم الحكم ، فقوّم هذا العوج مرة بنقد لاذع أليم . فالطبيب الكامل الذى لا ينزل عن شرف غايته إنما يداوى المرضى لخير المرضى ولا يجعل للأجر أول همه وآخره . فإن حرص على المال وحده فهو مرتزق أجير هوى عن شرف الغاية من فنه إلى حاجة المال الدنيا . والراعى الذى يرعى غنمه بغاية شريفة تصيره راعياً كاملا حقاً وصدقاً ، إنما يرعى غنمه ليعصمها من الذئب ويرِد بها موارد الكلاء والماء ، فإن هو نزل عن شرف غايته فسمن الشاة ليذبحها ويستطعم لحمها هو ورفاقه فليس براع فى معنى الفن الشريف . وقائد السفينة الحق لا يشغل قلبه بشىء من دون سلامة الركب ، أما ما يأتيه من استمتاع بالبحر وما يناله من قوة وصحة فليس ذلك مأربه الأول

والأخير ، إنما هى مغانم عرضية دون غاية فنه ، وهى السهر والحرص على سلامة الركب . والحاكم الحق الذى لا يهوى عن شرف غايته إنما يحكم الناس ليصيرهم أسعد حالا ، ولا يحرص على الأجر حرص المرتزقة المأجورين ، ويحرص على سعادة المحكومين وحدهم ، فإن لم يفعل فما هو بحاكم حقاً وصدقاً . والحاكم عند سقراط لا يحكم الناس لخير الناس وكفى ، بل لا يكون أهلا للحمد حتى يجعل وطنه أصلح حالا مما كان يوم وليه ، ولا يغنى عنه ما يوفر على المحكومين من مال وما يزودهم به من عتاد إن خلا قلبه من الجمال والخير . ورجال السياسة الأثينيين لم يعتصموا من تجريح سقراط حتى « بريكلليس » نفسه .

سقراط : إنى أريد أن أعلم علم اليقين ما يجب أن يتخلق به السياسيون فى أثينا ، وهل لك قصد إن وليت الأمر فينا من دون أن تجعلنا قوماً صالحين فاضلين ؟ فقد اعترفت غير مرة أن ذلك فرض على من يلى سياسة الناس . هل أقررنا بذلك أم لا ؟ أجب . نعم قد أقررنا ، وأنا أجيب نيابة عنك ، فإن كان ذلك ما ينبغى للساسة الصالحين أن يوفروا لأمتهم ، فقل لى ما عسى أن تقول فى أمر هؤلاء الحاكمين

الذين ذكرت منذ حين ، أفتراهم كانوا ساسة صالحين ؟ أريد بيركلليس وسيمون وملتياد وتيمستوكليس .

كاالليكلس: نعم .

سقراط : لو أنهم كانوا صالحين فمن البداهة أن كل امرئ منهم قد ترك أمته أصلح حالا مما كانت يوم تولاها .

كاالليكلس: ذلك حق

سقراط : وعلى ذلك فهل ترى أن الأثينيين باتوا أصلح حالا آخر أيام بير كلليس منهم يوم نهض فيهم خطيباً أول الأمر ؟

كاالليكلس: ربما .

سقراط : لا تقل ربما ، ولكن قل حتما ؛ لأن ذلك هو النتيجة الحتمية لما أقررناه لو أنه كان سياسياً حقاً وصدقاً .

كاالليكلس: وماذا تريد الآن ؟

سقراط : لا أريد شيئاً ، ولكن قل لى هل نستطيع أن نقول إن الأثينيين باتوا أصلح أمراً على يدى بيركلليس ، أم هم على النقيض التام من ذلك قد فسدوا على

يديه ؟ أما أنا فقد سمعت بأذنى أن بيركلليس قد صير الأثينيين جفاة غلاظ الأكباد وصيرهم كسالى ثرثارين وحبب إليهم الذهب والفضة منذ آجرهم على السياسة .

كالليكلس: إنك تصغى يا سقراط لخصومنا .

سقراط : وإنما هنالك شىء لم أسمعه وإنما شهدته بعينى وشهدته أنت كذلك ، ذلك بأن بيركلليس استمتع بسمعة طيبة فى مستهل حياته ولم يرمه الأثينيون بتهمة مشينة يوم كانوا أقل صلاحاً فى حياتهم ، فلما صيرهم خيرين جميلين اتهمه الأثينيون فى آخر حياته بالسرقة وأوشكوا أن يقتلوه وحكموا عليه كما يحكمون على أشرار الناس .

كالليكلس: وما معنى ذلك ؟ أفى ذلك ما يشين بيركلليس ؟

سقراط : لا شك أن سائق الحمير والخيل والبقر إن هو إلا راع سيئ إذا ساق حميراً لا ترفس وبقراً لا ينطح وخيلا لا تعض فأفسدها حتى استوحشت فرفست وعضت ونطحت من يسوقها .. أو لا ترى أن حارس الأنعام كائنة ما كانت إنما هو شر حارس إذا تولى هذه الأنعام فتركها أخشن جانباً مستوحشة

غير ذلول ؟

كاالليكلس : فليكن ذلك مرضاة لك

سقراط : فالسياسى الصالح إن هو إلا رجل عادل يرد قومه عادلين ، والعادلون رحماء رفقاء لينون كما يقول « هومير » وأما الظالمون فهم قساة جفاة مستوحشون ، وكانت تلك خلال الأثينيين تحت بيركلليس ، ومن أجل ذلك لم يكن بيركلليس سياسياً صالحاً فاضلا لأنه لم يبذر فى نفوس أهله العدل والرفق والرحمة ، وأما سيمون فقد نفاه الأثنيون عشرة أعوام ونفوا « تيموستوكليس » وكادوا يرمون « متريدات » من شاهق ....

....

ولا ينكر سقراط الفضل كله على هؤلاء الحاكمين الذين قدموا لأمتهم خيراً مادياً كثيراً لا يستطيعه معاصروه فى شىء .

كاالليكلس : ولكن هيهات يا سقراط أن يصنع أحد من حكام زماننا شيئاً كالذى فعله واحد من أولئك السالفين .

سقراط : يا عزيزى كاالليكلس إننى لا ألوم ما أسدى هؤلاء السالفون من نفع لأمتهم ، بل ترانى أعدهم خيراً

لأمتهم من حكام هذا الزمان وأراهم أقدر على أن يزودوا المدينة بما تريد ، ولكن إرضاء شهوات المدينة كان غاية أولئك وهؤلاء ، أما تقويم هذه الشهوات بالإقناع مرة وبالإكراه مرة أخرى وحمل بنى وطنهم على أن يكونوا خيرين فاضلين فذلك ما لم يفعله الأولون والآخرون ، مع أن ذلك وحده هو عمل السياسى الصالح . ولست أنكر على السالفين أنهم كانوا أقدر من حكام زماننا على أن يجعلوا لأمتهم أسطولا وأسواراً ومصانع للسفن .

• • •

فالحاكم لا يكون حاكماً حقاً وصدقاً حتى يحكم أمته لخير أمته ، كالراعى الصالح الذى يسهر على صالح رعيته ، ولاينال الحمد حتى يكون أسوة صالحة للعدل والخير وحتى يكون كالوالد المؤدب الذى يؤدبها بأدب الصالحين ، فيكبح شهواتها إذا جمحت ولا يبسط لها فى العبث واللذات . وقد عاصر سقراط حكاماً لم يحكموا زمام السياسة ، كانوا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، ويمنون الأمة الأمانى ويخدعونها بالثناء ، حتى اختلط الأمر على الأثينيين . ورسالة الحاكم الصالح قد تجاوزت المنافع الاقتصادية إلى المنافع الخلقية ، وهى على ذلك شبيهة فى عرضها وبسطها

على طريقة سقراط بتحذير لطالبي المجد من تلاميذ سقراط ، وهي هجاء لاذع لأشباه « كليون » من حكام أثينا ، وهي بعدئذ إصلاح للحياة السياسية من أصولها الأولى . ولو اتخذ الأثينيون السياسة جداً لأشفق أكثر الحاكمين على أنفسهم من أمانة الحكم ، وخليت الحكومة لمن أوتى الحكمة والفضل فيهم ولمن كان أسوة طيبة للناس . وما جزاء الحاكم الصالح أن يغتال سعادة الأمة مرضاة لنفسه ، وما جزاؤه إلا ما يكسب من مجد ومن شرف فى حكومة الناس كما يقول « أرسطو » ، فإن طمع فى شىء بعد هذا من متاع الحياة الدنيا فما هو بعادل ولكنه سلك سبيل الطغاة .

والذين أخذتهم سكرات الحكم من الأثينيين قد أغفلوا الحق واتبعوا أهواءهم وضلوا ضلالا بعيداً . فالحاكم عندهم يجب أن يستأثر بنصيب الأسد من الأموال والثمرات فإن ذلك فى زعمهم سنة الطبيعة التى فطر الناس عليها . وقد ناصب سقراط هؤلاء حرباً عتية لا رحمة فيها وغطاهم بهزوه وسخريته .

كالليكلس: إننى أعتقد أن العدالة الطبيعية قد أملت أن يحكم القادرُ الضعيفَ ، وأن يحكم العالم الجاهل ، وإن كانوا شركاء فى أمر فاز العالم بنصيب أكبر من نصيب الضعفاء والجاهلين .

سقراط : لَبِّثْ قليلا فما عسى أن تقول الآن ؟ فهبنا التقينا

جميعا فى مكان كما نلتقى اليوم ، وكنا كثيرين عدداً وتوفر لجماعتنا طعام كثير وشراب كثير ، وكان ذلك شركة بيننا جميعاً ولم نكن سواء فى قوتنا وكان فينا الضعيف والقوى ، وكان بيننا طبيب وهو أعلمنا بهذا الأمر ، ولكنه كان بطبيعة الحال أقوى جسداً من بعضنا وأضعف جسداً من بعضنا الآخر ، وهو أعلمنا جميعاً بالطب . أفلا ترى أن نعده أصلحنا وأقوانا ؟

كاالليكلس : لا شك فى ذلك .

سقراط : فهل ينبغى له أن يختص نفسه بنصيب أكبر منا فى الطعام والشراب لأنه أصلحنا فى الطب ، أم عليه وهو حاكمنا أن يقسم بيننا الطعام والشراب بالعدل ولا يستأثر بقسط أكبر من حاجة جسمه إن أراد ألا يشكو تخمة . وعلى ذلك فسيكون نصيبه أصغر من نصيب بعضنا وأكبر من نصيب بعضنا بحسب حاجته . فإن حدث أن كان ذلك الطبيب أضعفنا جسما كان نصيب أصلحنا وأعلمنا وحاكمنا أقل نصيب فى الجماعة . أوَ ليس كذلك أيها العزيز ؟

كاالليكلس : إنك لا تكف عن الحديث عن الطعام والشراب

والأساة والثرثرة الفارغة وأنا لا أكلمك عن هذه الصغائر .

سقراط : ولكن ذلك الذى تسميه « الأصلح » أو ليس هو أعلم الناس ؟

كالليكلس: بلى !

سقراط : وهل يجب أن تختص ذلك الأصلح بأكبر نصيب من المال العام ؟

كالليكلس: ولكنى لا أقول فى الطعام ولا فى الشراب .

سقراط : إنى أرى ولعلك تريد الثياب ، وينبغى بعد ذلك أن يلبس أعلم الناس بالنسيج أكبر ثوب فى الدنيا، وأن يمضى فى الأسواق ملفعا بأجمل الثياب وأكثرها .

كالليكلس: ولكن ما لك وللثياب ؟

سقراط : ولا شك فى أن أعلم الناس بصناعة النعال يجب أن يكون أغنى الناس فى النعال ، وعلى ذلك ينبغى أن يتنزه الإسكافى فى المدينة منتعلا بأكبر النعال .

كالليكلس: ما هذه النعال ؟ إنك تهذى .

سقراط : فإذا كنت لا تتحدث عن هذه الأشياء فلعلك تريد شيئا كالزراعة ، ولعلك تريد أن أعلمنا بالزراعة يجب أن يستأثر بأكبر مقدار من البذور ليبذرها فى

أرضه الخاصة .

كالليكلس: إنك تبدى وتعيد فى نفس الشىء يا سقراط .

سقراط : إننى أبدى وأعيد فى نفس الموضوع .

كالليكلس: ولكن بحق الآلهة إنك لاتفتأ تعبث بذكر الإسكافى والطبيب والطباخ كأنما نتحدث عن أشباه هؤلاء .

....

....

• • •

(ولو أن سقراط قد قنع بأن يسخر من حكومة زمانه ، وبأن يعارض مذهب الحاكمين بمذهبه ، وأن يجادلهم بمنطق صارم شديد ، ما تيسر لسقراط أن يكتسب الأنصار من تلاميذه ، وكان أشبه شىء بمعارض سياسى وكفى . ولكن سقراط كان معلما ينزل من أنفس خصومه وسامعيه إلى موطن العلة التى تشكو منها بلاده ويشكو منها الأفراد فى حياتهم العامة والخاصة) فهو يريد أن يعالج نفوس الناس لأن النفوس أمارة بما تأتى من خير ومن سوء . والذى يستطيع أن يهذب النفوس بالتعفف والعدل وحب الجمال والخير يستطيع أن يكفل ثمرات طيبة فى أعمال الناس . وكان سقراط يعلم الروح لقصدين : أحدهما أن يعيش الفرد فى وئام وانسجام مع نفسه ، والآخر أن تسعد المدينة

بحكامها الرحماء المعقولين وتعيش فى وئام وانسجام مع أهواء معقولة منسجمة ، ويريد سقراط أن يغير ما بنفوس قومه ليردهم عادلين.

وقد كان بنفوسهم أن يعيشوا طلقاء من كل عقال وقيد ، وكانوا يؤمنون أن الجمال والعقل فى طبيعة البشر أن نطلق العقال لأهوائنا ومطامعنا إلى غير حد ، وأن نحقق هذه الأهواء الجامحة والمطامع العاتية بالإقدام والذكاء ونرضيها بسائر ما تشتهى .

وكان بنفوسهم أن يتحرروا من كل قيد ، فلا تردعهم قناعة ولا تعفف . وكان بنفوسهم أن يستمتعوا بشهواتهم الجارفة ما أملت لهم نفوسهم المتاع . فالفضيلة والسعادة فى رأيهم قائمتان فى المتاع والحياة المترفة المطلقة من كل قيد ، وما عدا ذلك فأوضاع إنسانية ليست من طبيعة الإنسان فى شىء . وما الحياة السعيدة إلا مطامع وشهوات لا يحجزها حجاز ، وما الفضيلة فى زعمهم إلا أن نشبع هذه المطامع والشهوات بكافة السبل .

° ° °

ويريد سقراط أن يقنع أولى الشهوات والأهواء أن يؤثروا القناعة بما فى أيديهم على الطمع فى ما فى أيدى الناس ، وأن يعيشوا بنفوس عاقلة مطمئنة على أن يعيشوا بشهوات ليس لها من قرار ؛ ويريد أن يعلمهم أن السعادة أن تطيب النفس بنظام لا اضطراب ولا اختلاط فيه ، فإن مواطن الشهوات فى نفس الإنسان طيعة

بطبيعتها متخبطة ذات اليمين وذات اليسار ولا تستقر على قرار .

« ومن أجل ذلك شبهه أحد العارفين بالأساطير ولعله كان من أهل صقلية أو من أهل إيطاليا وكان رجلا أخا فكاهة يلعب بالألفاظ . شبه موطن الشهوات فى النفس « بالبرميل » ؛ لأن هذا الجزء من الروح طيع سهل الاقتناع ، وعد السفهاء غرباء عن أسرار الجمال ، وشبه موطن الشهوات فى أنفس السفهاء ببرميل لا قعر له ، وذلك بأن نفوسهم لا تقتنع بشىء ولا تستقر على شىء ولا يملؤها شىء ... ويعلمنا أن هؤلاء السفهاء أشقى خلق الله فى الدار الآخرة فهم لايفتئون يحملون الماء فى دلو مخروق إلى برميل مخروق . وشبه روح هؤلاء بدلو مخروق فهى روح مثقوبة لا تتمسك بالخير ولا بالجمال ، وهى جاهلة غافلة لا تحفظ الخير ولكنها تنساه . ولا ريب أن هذا تشبيه عجيب ، لأنه يصور ما أحب أن أقنعك به ما استطعت ، وما أحب أن أبينه لك إلا لتؤثر حياة راضية معتدلة قانعة بما تملك على حياة لا يروى غليلها شىء ولا تقنع بشىء »

وكذلك نبصر سقراط وهو يهوى إلى أفئدة الناس ليطهرها من فتنة الشهوات ويلقى فى رحابها بذور الاعتدال والقناعة ، لأن الذين لا يعقلون نفوسهم عن شهوات لا تنتهى إنما يشقون وتشقى بهم أممهم ويسخرون لشهواتهم الضعفاء ، وذلك ظلم

تنقّض منه سعادة المدينة .

عدالة القسمة

من يسيّر السفينة ؟ وما جزاء ربان السفينة ؟ فى هذين الأمرين كل مصائر الدول ، وفى هذين الأمرين استنفدت عبقريات المصلحين من فلاسفة اليونان ؛ لأن فى ذلك حياة السفينة إن أصاب أهلها خيراً وفيه بوارها إن أخطئوا سبيل الرشاد . ولم تكن هذه العدالة أمراً يسيراً .. وهى رغم رحمتها وعقلها منفرة لقلوب الذين يحكمون الناس عنوة والذين يستبيحون أموال الجماعة . وللقوة سكرة لا تصغى إلى العقل وتكره إن طغت كلمة العدل . ولا سبيل إلى معرفة نفس وما تخفى من قوى الخير والشر حتى تتولى حكومة الناس ، ولا ينجو من كبرياء سكرتها إلا من حمل قلباً قويا لا يسكره الجاه والسلطان .

• • •

والأمر عند فلاسفة اليونان أن تلقى مقاليد الحكم للأصلح وهم ينزعون فى حكومتهم الحرة إلى ارستقراطية قائمة على أقدار الصالحين فلو أن عاصفة عصفت بالسفينة وهددت كيانها فليس لها من عاصم إلا أن تهرع لأصلح الركب على قيادتها ، ولا يسألون يومئذ إن كان فقيراً أو غنياً . وأقدر الناس أحق الناس بالحكومة ،

ومن أجل ذلك وقف فلاسفتهم أعمارهم على تعليم الناشئين ، ليبلغ أبناء المدينة أقداراً سامية صالحة تيسر لهم إن تولوا مقاليد الأمور أن يتولوها صالحين . والحاكم حارس للعدل والمساواة ، وهو حارس لشرف المدينة وسعادتها ، وهو حارس وراع ولا ينال الراعى والحارس من حمد إن انقلبت الرعية على يديه هزيلة قليلة . واتخذ هؤلاء الفلاسفة المعلمون أسوة طيبة فى أبطال أثينا الأولين الذين درءوا عن أمتهم جنود الفرس فى « مراتون » و « سلامين » ، وهم يريدون حاكماً عادلاً لا يرائى بقدره وعدله ، ولا يحرص على شىء أكبر من أن يشرب قلوب الناس بالعدل . وكان مثلهم فى ذلك « أرستيد » العادل ، وكان وفيا كبيراً على جاه الدنيا ولا يحرص على زخرفها فى شىء ، فقد عاش ومات فقيراً ، ولكنه مكث درة فى جبين المدنية اليونانية . شهد المسرح ذات نهار فلما تلا الممثل أبيات « أشيل » إنه لم يرائى الناس بعدله ولكنه كان عدلا حقاً وصدقاً ، فى قلبه منبت خصب ينبت الحكمة أبداً وسداد الرأى أبداً . فالتفت الناس أجمعهم إلى « أرستيد » .

• • •

وليس من الصالح العام أن يتولى مصائر الناس أعجزهم ، وليس من طبيعة الأشياء أن يكون هادى الطريق جاهلا بالطريق . وقد أملت سنة الطبيعة والعقل أن ينهض بالحكومة الصالحون

المصلحون ، وعلى ذلك فلم يقلع الفلاسفة مبشرين ومنذرين عن ذلك المبدأ الطبيعى ، وهو أن الفروض والتكاليف فى حكومة ما يجب أن تلقى فى أعناق القادرين الصالحين . وليس فى الأمر من خلاف فى الطبيعة ولا فى المنطق سوى أن القيم الصالحة والأقدار الصادقة لا تكسب هونا ما ، وفى هذا الأمر وحده كل مصير الأمة وكل دين الأمة وكل أمل الأمة . والأمة الصالحة الرشيدة تحرص على أقدار بنيها على سواء ومهما أنفقت فى بناء هذه الأقدار فليست تنال إلا خيراً، وسيرتد حرصها قوة لها وسعادة .

فى الزمن الصالح السعيد من حياة أثينا كان الأثينيون يقومون لأمتهم قيامهم للصلاة ، وإذا دعت أبناءها لرأى جامع أقبل الفلاحون سعيا تحت جنح الليل جماعات فى أيمانهم مساوقهم وعلى أذرعتهم عباءاتهم ، وينشدون على الطريق نشيداً قومياً قديماً وينتظرون مجلس الأمة منذ مطلع الفجر ولا يسألون على مايفعلون إحساناً . ويحمل كل امرئ طعامه زيتونة وبصلة — كما يقول « أريستوفان » — كل يقدس أمته أكبر مما يقدس أمه وأباه . والذين آمنوا بهذا الحب أنفقوا محياهم ومماتهم لهذا الوطن وحرصوا على ألا يفوتهم فى البأس والقوة من عسى أن ينقلب عليهم عدوا من بلد عدو . وليس من السياسة إذا يسرت للناس أممهم السبيل أن يقنعوا بالهين اليسير من الأقدار ، فإن قيمة كل أمة فيما

تجمع من أقدار قومها .

ولا بد للسفينة من قائد مطاع تتجمع حوله أفئدة الركب جميعاً ، ولن يتبعوه خالصين مخلصين حتى يؤمنوا بما لديه من قدر ، وحتى يعلموا أنه فوق أقدارهم . ولا يكفى ربان السفينة أن يعلو فى الركب وحدهم كيما تسلم السفينة ، ولكنه ينبغى أن يكون أكفأ وأصلح وأقدر من كل قائد عدو قد يعترض لسفينته بسوء ، فإذا تجمعت هذه الأقدار لأمة إذا مات منها سيد قام سيد ، أوتيت حظاً من العزة ونشرت السعادة فى نفوس أفرادها أجمعين .

ولقد استبقت المدن القديمة أيها يكون أعلى قدراً . كلٌ بما أبدعت عبقريته .

وكما تنهض المدينة بالعدل فى قسمة الحقوق والتكاليف تنهار المدن بالتفريط فى رعاية هذا العدل . والعجب أن يكون أدنى تفريط من الأفراد فى الإيمان بالفضائل كأدنى تفريط من الحكومات فى القيام على الفضائل ... كلٌ هادم للسعادة والمجد ، ونصيب كل امرئ مهما صغر قوة إن صلح ووهن إن فسد .

ولا يتولى مصالح الأمة إلا القادرون الأكفاء ، ولكن هذه الكفاءة لا تكون فى سائر الحكومات على هيئة واحدة « فالحكومة الارستقراطية تقسم الفروض والتكاليف على ذوى القيم السامية » وحكومة الأغنياء تجعل ذلك الحق لذوى الأنساب والثراء ،

والحكومة الديموقراطية تقسم هذه التكاليف على الناس على سواء كما يقول « أرسطو » .

ومهما اختلفت هذه الأسماء فإن القيم الإنسانية التى تعيش بها الجماعة هى الأساس الذى ترتكز عليه كل واحدة من هذه الحكومات . فالحكومة الارستقراطية لا تصلح إلا بالفضيلة ، والحكومة الديموقراطية لا تصلح إلا بالفضيلة ، وكذلك حكومة الأغنياء لا تصلح إلا بالفضيلة . ونريد أن نفسر كلمة الفضيلة كما فسرها « مونتسكييه » من قبل . فليست هى الفضيلة المسيحية كما يقول ، وإنما هى كل ما يكمل الرجولة من خلال ، وهى الشجاعة والحكمة والعفاف والعلم . والذين يبلغون منازل الكمال فى هذه الفضيلة ثم يديرون مصائر أمتهم يستطيعون أن يبسطوا فى رحابها العدل ، وكل نظام يخلق الكملة من الرجال ليتولوا قيادة المدينة فهو نظام ارستقراطى مهما اختلفت الأسماء ، فكيف تتبدل حسنات هذه الحكومة سيئات ؟ والأمر جلى يوم يأتى قيم رجالها وهن من ناحية من النواحى . أساس هذا البناء هو الفضيلة ، وعلى قدر ما تتهاون أمة فى هذ الفضيلة يصيبها الإعياء فالدمار ، وهذا المرض درجات وحسب أمة أن تسأم تكاليف هذه الفضيلة حتى تستبق إليها جراثيم المرض . فلو أن أمة ارستقراطية قائمة على قيم الأفضلين قد زاوجت بين الزوجين على غير موعد

كما يقول سقراط جاءا بذرية ضعفاء لا حظ لهم من القوة ، ثم يختار آباؤهم أصلحهم لحكومة الناس وما هم بصالحين . فإن تقلدوا مناصب الأولين « حكمونا مفرطين وهم حراسنا ، ولا يحفلون بغذاء الأرواح من الآداب والفنون واستحبوا رياضة الأجسام . وبهذا يكون حكامنا المحدثون أقل أدباً وتهذيباً من آبائهم ، ويختلط الأمر بعدئذ بين طائفتين من الحاكمين ، بقية من الأولين الصالحين ، وطرف من المحدثين الضعفاء . فإن حدث ذلك نهض الخلف والشقاق وأتت على آثارهما الحرب والعداوة ، فإذا انصدع الوئام فى المدينة أقبل جيل جديد على الكسب وامتلاك الأرض والبيوت ، وعف عنها الجيل القديم لا عن فقر لأن الله أودعه غنى أبدياً وهو الفضيلة . ثم وقع بأسهم بينهم واستنفد كل فريق بأسه فى نضال ونزاع ، ثم أتى كلاهما إلى حل وسط فاقتسما الأرض والبيوت . ثم إن حكامنا الذين كانوا من قبل حراساً ورعاة لقومهم ، والذين كانوا يعدون قومهم أصدقاء أحراراً ويعدونهم أولى نعمتهم ، هؤلاء ينقلبون بعد ذلك طغاة باغين ويعدون قومهم عبيداً وخداماً .

وتتضاءل آثار الفضيلة فى أنفس المدينة ، وينقرض صداها شيئاً فشيئاً كلما تبددت قوة حزب الأفضلين ، وتبدو كأنها أثر بال للناشئين ، ويأخذ حب المال عليهم كل سبيل ويعشقون

الأموال كما يعشقها من يعيشون تحت حكومة لأغنياء ، ويعبدون الذهب والفضة ويتخذون خزائن وكنوزاً فى بيوتهم ليخبئوا فيها أموالهم ، ويحيطون بيوتهم بسياج كأنها وكر الطير ، وينفقون مالهم على النساء وما يحبون من متاع » .

حكومة النصاب

ولايلبث حب المال أن يطغى ويُمَجِّد أولو الثراء لثرائهم ويكون لهم الأمر كله فى المدينة وتمسى سياسة الدولة وقيادتها للذين يملكون نصابا معلوما من المال ، ومن لم يملك أدنى النصاب فليس له من الأمر من شيء . وهذه الحكومة إن فسدت فسدت من ناحيتين : يوم يستمسك أولو الأموال بالأموال من دون الفضيلة ، فيتولى قيادة السفينة الجاهلون ويقصى عن قيادتها الفقراء ولو كانوا أعلم الناس بسياستها ، وهى حكومة فاسدة من ناحية أخرى لأنها تجمع مدينتين فى مدينة واحدة : مدينة الأغنياء ومدينة الفقراء ويكون بعضهم ، لبعض عدواً ، ولا تلبث العداوة أن تنقلب حرباً على المدينة جميعاً . وهذه الحكومة لا تستقر من قلق ولاتقيم على حال ، كلما جاءتها حرب خرج إليها الأغنياء والفقراء جميعاً . ويومئذ يشهد الفقراء أن الأغنياء الذين نشئوا فى ظلال المال لا يطيقون حر الحرب ويتصببون عرقاً ويلهثون من الجهد ،

وحينئذ يقول الفقراء هؤلاء لم يجمعوا ثراءهم إلا من غفلتنا . ولا يلق الفقراء سلاحهم حتى ينالوا نصيباً فى سياسة المدينة ويقسم عليهم نصيب من الأرض وتخفف عنهم أثقال الديون .

الحكومة الديموقراطية

فإذا سارت الأشياء سيرة طبيعية لم تقف مطامع الفقراء عند حد ، ولا يقنعون بشيء من دون المساواة ، ويومئذ تكون الحكومة للناس جميعاً على السواء . وهذه المساواة فى الحقوق قد تكون إحدى غايات العدالة الطبيعية ، إلا أن الأمر لا يستقيم إذا خلينا مقاليد الحكومة للصالح والمفسد على السواء فلا تستوى الحسنة والسيئة. والحكومة الديموقراطية أحوج الحكومات للفضيلة ، لأنها لا توصد ثنايا المجد على أحد ، إلا أنها لا تصلح إلا بما تصلح به الأرستقراطية الحقة ، أى بقيم الصالحين لا بد لها من الفضيلة ، ولا بد لها من حب الوطن ومن التعطش للمجد الحق ، وإنكار الذات وبذل كل عزيز ، ودأب لا ينقطع إلى الكمال ، وخلق عادل عف شجاع وإيمان راسخ . وهذه الفضيلة ليست هينة يسيرة ومن أتاها كان أهلا لأن يتقلد زمام المدينة . والحكومة الديمقراطية الصالحة تختار من تختار عن رشد وتعرف أقدار الصالحين وتعرف كيف تجزى المحسنين بإحسانهم ، وهى سيدة فى اختيارها

وهى طيعة بعد ذلك للحاكمين . والحاكمون لا يبتغون شيئاً فوق مجد أمتهم . يوم تفسد قيم الحاكمين والمحكومين فى حكومة ديمقراطية ترى نظاماً يغرى الجاهلين فيه ما تشتهى كل نفس من سبقت يده إلى مال الدولة فهو له . وكفى بالحاكمين قدراً أن يشتبهوا بظاهر القيم وأن يقفوا للخيرين كل مرصد ، ثم يحتل الفساد قلوب الناشئين كما يحتل العدو معقلا ، إذا لم يجدها عامرة بالعلم والمبادئ الصادقة السامية وإذا ألفاها خالية من هذه القيم التى يعصم الله بها أفئدة أحبائه كما يقول سقراط . ثم يستبق الأفتراء والادعاء أيهما ينزل منازل الصدق والجميل والمعرفة فى نفوس الناشئين ، حتى إذا امتنعا بهذا المعقل غلقا أبوابه كى لا يدخل عليهما داخل ، ثم لا يقبلان نصح الشيوخ العالمين ويستبدان بالأمر ، ولا يرعيان للحياة حرمة بل يطرحانه بمزجر الكلب ، ويسميان التعقل جبنا فينتزعانه مهينا ، ويعدان الاعتدال والاقتصاد فى الإنفاق من شيم العبيد ، حتى إذا انتزعا من أنفس الناشئين كل خير وطهراها من آثار الفضيلة آوى إليها الفجور والفوضى والإسراف والتوقح ونرى الافتراء والادعاء يتوجان هذه الرذائل ويزفانها فى حفل كبير وينشدان مديحها ويضفيان عليها كل نعت محبوب ويسميان الفجور أدباً والفوضى حرية والإسراف فخامة والوقاحة شجاعة . ولو أن الحكومة قامت

على عمد من الرذيلة . فليس يفجؤها إلا أن يخر عليها السقف من فوقها أو تكون فريسة للطامعين . وإذا لم تمتد إليها يد العدوان من بلد غريب جاءها العدوان من أشد أبنائها كفراً وفجوراً ، فنهض فيها طاغية يحكم فيها بأمره ، ولا خير فى العيش فى ظلال الذل فلن يجتمع العدل والذل جميعاً . وكيف تلقى العدل فى بلد ينهدم فيه كيان العزة والكرامة الإنسانية من كل فج ؟ وما تكون الأقدار إذا هدمت أفئدة وسلبت آمال ، وحرمت الكرامة على الناس لا يباح لهم إلا ما يباح للعبيد من معرفة وقدر ؟ وتسخر أمة لأمة وتمتص أمة دماء أمة وتستنزف نعيم الحياة فيها حتى تئن بين أحزان الأسى وأثقال الفقر والإعياء ، وتثمر ما تثمر وهى مريضة حسبة للقاهرين . وما على القاهرين إلا أن يهدموا حياة المغلوب من منابتها ، فإذا دخلوا على الأحرار الذين لا يصبرون على ضيم أخذوا البرىء بالمذنب والمحسن بالمسىء والقائم بالظاعن ، حتى يلقى الرجل منهم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد . وأما أن يقيموا فى ديار المغلوب بجندهم يسلطون العذاب على كل نفس فلا ينجى الصالحين سوى الموت أو الخروج من ديارهم ، وأما أن يختاروا فى البلد المغلوب ذرية المغلوبين يرضعونهم بلبانهم ويشربونهم حبهم ويغدقون عليهم ثمرات الحياة حتى ينصروهم على أمتهم وحتى يحلبوا البقرة حتى يدمى ضرعها ، ومن وراء ذلك

سياسة تفعل ما لا يفعل السيف فلا تهدم الأجسام وحدها وإنما تنتشر فى الظلام إلى الأرواح فتهلكها .

حكومة الطغاة

وأما حكومة الفرد المستبد فقد أتت فى أثينا على آثار مرض فى الديموقراطية يوم آست الديموقراطية فى الأقدار بين العاجزين والقادرين ورضيت بالقيم الظاهرة الكاذبة ، ويوم نزلت بها علة هى آفة الديموقراطية يوم لا يكون للحاكمين والمحكومين مأرب أبعد من شهوات أنفسهم ولا يعيشون للدولة وإنما تعيش الدولة لشهواتهم ، وتنسى فيها الفضيلتان اللتان يقوم عليهما بناء كل ديمقراطية صالحة وهما الحرص على أقدار الصالحين والإيمان بأن هذه الأقدار للجماعة لا لشهوة الأفراد ، ويوم يتخذ هؤلاء الأمة نهبا يصيحون فى حجزاته . وقد يهيض جناح الديمقراطية إذا أسرفت الديمقراطية على نفسها فى الحرية حتى تفقد الحرية فضيلتها فلا تحرص على أحد من رجالها ويلقى الحبل على الغارب للناس يختارون ما يشاءون ويذهبون من الحياة فى كل مذهب وتخال الحاكم محكوما وتحسب المحكوم حاكما وترخص القيم على الناس وتسوى الأقدار أمام القانون ويختار الحاكمون بالاقتراع أو ما يشبه الاقتراع مما لا يميز الخبيث من الطيب ويومئذ لا ينبغ

فيها إلا كل آثم كاذب فاجر تعميه شهوات الحكم عن كل خير ويرتكب فى سبيل الحكم كل إثم وينفق كل بلاء فى تحطيم من من يعوقه عن بلوغ الحكم . ولكى نتبين الأمر عن جلاء نأخذ فيه بحديث سقراط :

سقراط : هب أن الديمقراطية بنيت على ثلاث طبقات كما هو الواقع : الطبقة الأولى طبقة الطغام ، وقد جاءت هذه الطبقة من الإسراف فى الحرية وليست أدنى عدداً من فقراء حكومة الأغنياء .

: هذا حق .

سقراط : ولكن هذه الطبقة أشد بأساً وعنفاً فى حكومة الديمقراطية منها فى حكومة الأغنياء .

: وكيف كان ذلك ؟

سقراط : لأنها لا قدر لها فى حكومة الأغنياء ، وهى هنالك بمعزل عن الحكم هينة لا أثر لها ، أما فى الديمقراطية فلها الأمر كله إلا قليلا . وهى أشد عنفاً وصخباً فى القول والفعل ، وهى تجلس من حول منبر الخطابة تزمجر وتكم أفواه المعارضين . وهكذا تقضى سائر الأمور إلا قليلا بيد الطغام . والطبقة الثانية دبرت مالها فحفظته ، وهى طعمة

تطعمها حكومة الطغام بما تفرض على أموال الأغنياء من ضرائب لا يراد بها الصالح العام وإنما يقسمها قادة الطغام على الطغام ويخرجون منها أنفسهم بنصيب الأسد . والطبقة الثالثة طبقة الصناع والعمال وهؤلاء لا يقبلون على السياسة إلا بأجر . وعلى قادة الطغام أن يجلبوا رضاهم بمال الدولة .

° ° °

فإذا ساءت الحرية فانتهت إلى هذا الشقاق عبدت السبيل لمطامع الطامعين . واجتنب السياسة أولو الفضل حتى لا يصيبهم نضال الغاشمين ، ويمسى كل شيء فى يمين الطغام ، ويمسى الطغام فى يمين الخطباء ، وهؤلاء إن آنسوا من أنفسهم عجزاً جردوا الخطابة من الفضيلة فجعلوا الصدق كذباً والكذب صدقاً ، والخطابة يومئذ أداة هدم ، ويومئذ يدوس ذوو الأطماع الفضيلة وينقضون يسيرون الطغام وينصبون أنفسهم حراساً للطغام ويعدونهم ويمنونهم فيطيعهم الطغام ويفدونهم بالنفس ويمنعونهم من كل إثم .

فكيف ينقلب طاغية من كان بالأمس حامياً للطغام ؟ إنه لم يحام عن حق ولم ينصب حياته للصالح العام ، وإنما اتخذ حماية الطغام سلماً يتسلق عليه إلى مآرب شخصية ، حتى إذا

بلغ مأربه زاده السلطان عتوا وطغياناً . وتراه أول الأمر بساماً يفشي السلام على من يلقى . وينفى عن نفسه شبهات الطغيان . ويمنى الناس جميع الأمانى فى الخاص والعام . ويعدهم بأن يخفف الدين عن المدين ، ويوزع الأرض على الفقير وعلى أنصاره وسائر الناس . فإذا فرغ من نضال أعدائه الخارجين فهادن طائفة وأهلك أخرى ، وخلا له الجو من هؤلاء ، وأشعل نار الحرب حتى لا يستغنى الطغام عن قائدهم أثقل الناس بالضرائب حتى لا يفيقوا من فقرهم وحتى يشغلهم معاشهم عن أن يتآمروا عليه . فإذا آنس من بعضهم حرية واستقلالا أرسلهم وقوداً للحرب . وقد يكون من أعوانه صرحاء ينتقدون ما يرون من فساد جهراً وبالغيب ، وهؤلاء أشجع الناس فلا بد للطاغى من أن يبيدهم إن أراد الحكم ، حتى لا يبقى فى المدينة أحد له قدر . ويجب أن يصوب عينيه على كل شجاع و كل عزيز وكل حكيم وكل غنى ويقاتلهم وينصب لهم الفخاخ حتى يطهر المدينة منهم . وهو يفعل ما يناقض أطباء الأجسام . فهؤلاء لا يبترون إلا الفاسد من الأعضاء ، ولكن الطغاة يبترون الصالحين فى المدينة . ثم إن الطغيان يجر الطغيان ، ومن أكل أكباد البشر مرة انقلب ذئباً ، واتخذ بطانة من العبيد الطيع . ولا ينفك عن البغى حتى يقتل أمه وأباه ؛ فلا ريب أنه يعيش

من مال أبيه هو وضيوفه ورفاقه ورفيقاته ، وأن الشعب هو الذى ولد الطاغية وعليه أن يطيقه هو وأصحابه. فإن لم يصبر عليه سخط وجاهر أنه ليس من العدل أن يعيش ولد فى عنفوان الشباب من مال أبويه وإنما ينبغى أن يعيش الأب من مال ابنه ، وأنه لم يلده وينشئه ليكون عالة عليه هو وعبيده ومن يلوذ به ممن هب ودب من الأغراب ، وإنما اختاره ليحرر الشعب من الأغنياء ومن يسمون الأشراف الطيبين فى المدينة . فإذا سخط الشعب أمر هذا الطاغية أن يبرح المدينة هو ورفاقه كالأب الذى يطرد من الدار الابن وضيوفه الفاسدين . ولا ريب أن الشعب يعترف إذن أنه وهو شيخ ضعيف يطارد رجالا أشداء لا قبل له بهم ، ولا ريب أن الطاغية يأخذ أباه أخذاً شديداً ، وإن لم يسمع ويطع لطمه بعد ما يجرده من السلاح . فالطاغية قاتل أبويه وهو بئس الابن لشيخوخة أبيه . والأمة التى تسرف على نفسها فى الإباحة وتحمل على أعناقها طاغية تهوى إلى شر العبودية وترسف مقيدة فى أغلال العبيد من بطانة الطاغية .

° ° °

إننا قد تابعنا بعض صور المرض الذى ينتاب كل نظام والعلة واحدة مهما اختلفت أسماء الحكومات . من أغفلت قيم بنيها شبوا عاجزين فى أى نظام كان ، ولا يغنى المال ولا الحرية

ولا السلطان عن الأقدار شيئاً . وحيثما نجحت أمة فى بناء قيم أبنائها الكملة وعاش هؤلاء لأمتهم وللصالح العام نستطيع أن نجد معالم العدل ؛ وفى ظلال العدل تنمو سعادة الأفراد ، ومن أجل هذه الفضيلة عاش ومات سقراط .

إيمان سقراط

وآمن سقراط بالعدالة إيماناً روحياً راسخاً لم يكلف به إلا نفسه ، وعجبوا أن رأوا رجلا يبشر أن المظلوم أسعد من الظالم . وهو يكره أن يكون ظالماً أو مظلوماً لكنه يرى رغم ما يقع تحت ظاهر الحس أن محتمل الظلم أسعد قلباً من مقترف الظلم . ويسمعه الذين يريدون المجد عنوة فلا يكادون يعقلون حديثاً . كيف وإن ينصتوا من حولهم يسمعوا عامة الناس تمجد الأقوياء وإن كانوا ظالمين . ثم هم يستمعون لسقراط وهو مغرب فى قول لم يتهيأ لهم من قبل . وفى هذه الناحية تجاوز سقراط آفاق المعلم السياسى الذى رأى عوجاً فقومه . ودخل سقراط بعد ذلك الحد فى عداد الأنبياء . وقد ذهب كثير من المؤرخين إلى الجمع بين سقراط وبين المسيح فى دعائهما إلى الخير الأعلى والصدق الأعلى ، ولم يحجب سقراط عن هذا العالم مطمع ولا دنيا ، ومضى يطيع داعى الصدق والحق ، وما كان سقراط ليحفل فى سبيل الحق بأهواء الأثينيين ، ولم يكن سقراط ليخاف فى سبيل الحق مقت الأثينيين ، فهو يريد أن يجاهدهم كيما ينقلبوا

خيرين وصالحين . ويريد أن يؤسيهم كما يؤسى الطبيب مرضاه، ولا ينزل نفسه منازل السياسيين الذين يخاطبون الشعب بما يرضى الشعب وهم لا يؤمنون بحق ولا بعدل . وقد سهر سقراط على سعادة الأثينيين دون أن يعبأ بهم إن سخطوا وإن غضبوا وهو يقول : « إننى أعتقد أننى واحد – وإن لم أقل إننى الأثينى الوحيد – من الأثينيين القلائل الذين يتبعون فى أثينا فن السياسة الحق . وإننى الوحيد الذى يعمل بهذه السياسة فى زماننا . وإننى لم أقل قولا لأحد مرضاة لأهوائه . وإننى لا أريد إلا الإصلاح ولا أبتغى لذة السامعين . ويعلم سقراط أن الأثينيين قد لا يصبرون على قول الصدق الذى يفضح سوآت الظالمين . وأن هؤلاء الظالمين قد يدفعونه ظلماً بين يدى القضاء ؛ وهو يعلم أن الصدق مر على النفوس . وأن الثناء جميل يغر النفوس . ولكن ذلك لم يمنع سقراط من أن يحتمى فى حمى الصدق وحده . ويريد أن يعيش صادقاً عادلا وأن يموت عادلا صادقاً وأن يدخل بالعدل والصدق فى جزيرة السعداء عند الله . وهو يقول إن مثلى إن حاكمه القضاء كمثل طبيب عرض على محكمة من الأطفال وكان المتهم طباخاً ، ثم أنظر ما عسى أن يقول هذا الطباخ إذا نهض يتهمنى سيقول : يا أيها الأطفال إن هذا الرجل قد أساء إليكم غير مرة ، فهو يشوه صغاركم بالبتر والنار

ويسقمهم ويخنقهم ويذيقهم مرّ الشراب ويكرههم على الجوع والظمأ ويفعل نقيض ما أفعل ، فإنني أهيئ لكم الطعام الهنيء والشراب المرىء من كل صنف . فما يملك الطبيب فى هذه المصيبة إن أراد أن يقول الحق ؟ فإن قال لهم أيها الأطفال إننى فعلت كل ما فعلت فى سبيل صحتكم . ألا ترى أن تهيج المحكمة بصياح شديد ؟ وإننى أعلم أنه قد يصيبنى ما يصيب هذا الطبيب إذا أنا وقعت تحت طائلة القضاء فلن أباهى بما قدمت لهم من متاع ولذات وما تشتهى نفوسهم من حسنات ، مع أننى لا أحسد الذين يقدمون هذه اللذات ، ولا أحسد الذين يتقبلون هذه الحسنات ، فلو أن أحداً شكانى بما أفسد الشباب فى زعمه ، وبما أضللهم فى حوارى ، وشكانى بما ألوم الشيوخ وأحمل عليهم بلسانى فى مجامعهم الخاصة والعامة ، فلن أستطيع أن أقول الصدق وأن أقول لهم : إننى لم أقل إلا عدلا أيها القضاة ، ولم أفعل ما فعلت إلا إبتغاء خيركم وصلاحكم . ولا ريب أننى ألقى منهم بعد ذلك حتفى .

وعلى ذلك فإن سقراط لا يبالى بما قد يمسه من عذاب فى سبيل الحق ، فقد آمن بعد هذه الفضيلة بالله ، وآمن بخلود الروح ، ويريد أن يطهر الروح من كل رجس وإثم ، لتقضى الحياة راضية مرضية ، ولتدخل بعد الموت فى دار الصالحين

أما من حرص على سعادة الحياة فينبغى أن يطهر قلبه من الظلم والعدوان ، وأن يسارع إن ارتكب إثماً فيطهر قلبه تطهيراً ويعترف بإثمه وظلمه لدى القضاء ويتقبل ما يفرضه عليه القضاء من عقاب ، لأن الإنسان إذا حرص على سلامة جسمه عجل فشكى مرضه إلى الطبيب حتى لا يتفشى المرض من مستصغر الداء إلى سائر الجسم فيهلكه . ويتقبل المريض فى سبيل سلامته كافة ما يمليه الطبيب ، وقد يكوى أو يبتر موطن الداء من جسمه ، وقد يحتمل فى سبيل هذه السلامة الآلام والبلاء . وما باله حين يأثم إثماً أو يرتكب ظلماً يحرص على كتمانه وعلى أن ينجو من العقاب ، مع أن للروح سلامة كسلامة الجسد ، ومن أقام على ظلم وإن صغر لا يعدم الظلم أن يجر ظلماً بعده ، ويتفشى فى الروح جميعاً مرض يسد على النفس مسالك الجمال والخير فلا تحفظ فى طويتها سوى المظالم ، والمظالم قبح و كل قبح عذاب ، ومن لا يعجل فيطهر قلبه من العدوان والظلم فجزاؤه أن يعيش فى القبح وجزاؤه أن لا يطيب له ضمير بالخير والجمال . و كان سقراط يدين بهذا الدين ، ويؤثر أن يبيت مظلوماً على أن يبيت ظالماً . فليس على المظلوم من إثم يطهره ، وإنما على الظالم أن يكفر عن ظلمه فيتقبل العقاب طوعاً كما يتقبل المريض الدواء . وكان سقراط يفجأ

عامة الناس بهذا الإيمان الذى لا يقوى عليه إلا الصالحون . وما أكثر الناس ولو حرص سقراط بعادلين . فهم يجمعون مالهم ويقيمون سلطانهم على أشلاء الضعفاء ، ويستمتعون باستذلال الضعفاء والعاجزين . وآمن سقراط بخلود الروح . وذلك أن المعرفة ليست إلا ذكراً لعلم قديم حفظته الروح ، فهى بذلك كائنة قبل أن يكسوها جسم ، وهى كائنة بعد أن يبلى ذلك الجسم . فتأوى الروح إلى حياة منعزلة عن الجسم ، فأما من عمل صالحاً وعاش تقياً عادلا فإن روحه تدخل فى جنة الصالحين ، وأما من عمل سوءا فإن روحه تتردى فى هاوية الجحيم قال سقراط لكاليكليس : « دعنى أقص عليك حديثاً ، وقد تخاله أنت حديث خرافة إلا أننى أعده حقاً وصدقاً . ولست بمحدثك فيما أقول إلا بالحق . قال هومير قد ورث ملك زيوس من بعده ابناه « بوسيدون » و « بلوتون » وأقتسما بينهما ملك أبيهما وكانت فى زمان « كرونوس » شريعة ما زالت قائمة فى سنة الآلهة ، وهذه الشريعة تقضى أن من مات من البشر بعد حياة عادلة طيبة فجزاؤه أن يدخل جزر السعداء خالداً فيها لا يمسه سوء . وأما من عاش ظالماً كافراً بالله فجزاؤه أن يتردى فى سجن يكفر فيه عن سيئاته وهذا السجن هو ما يسمونه الجحيم ، وقد كان الإنسان فى بدء الزمان يحاسب حياً على

ما قدمت نفسه ، وكان الأحياء يعلمون متى يجيئهم الموت فيأتون لحسابهم بأجسامهم التى تخفى آثار أرواحهم . وتشابه الأمر على قضاتهم وأضلهم ما يتبع الأحياء من جاه وشهود يشهدون إنهم لصالحون . ويدخلون بعد ذلك جزر السعداء مع العادلين ، وشكا حراس هذه الجزر ما وجدوا فى الجنة من أنفس ظالمة تنعم بنعيم العادلين . فأمر « زيوس » أن يخبأ عن الأحياء أجلهم فلا يعلم أحد متى تحين ساعته . وأمر ألا يحاسب الإنسان قبل أن تنسلخ روحه عن جسده وتأتى الروح بمعالمها التى عاشت بها فى الحياة ويرتسم فيها ما اقترفت من إثم . وحين يعرض أهل آسيا على القضاء يعرضون على « ردامانت » الذى يصفهم صفاً ويتفرس فى أرواحهم دون أن يدرى صاحب كل روح ، بل كثيراً ما يمسك بروح شاه الفرس أو من عداه من الملوك والأمراء فلا يصيب فى أرواحهم صحة ولا سلامة ، بل يجدها مجرحة ممزقة بما حنثت بأيمانها وما جنت من ظلم ، وكلما اقترفوا ظلماً بقيت آثاره معلمة فى أرواحهم . وترى أرواحهم معوجة من آثار الكذب والغرور وليس فيها شىء قويم لأنها تجافت فى حياتها عن الحق . فإن رأى روحاً قد امتلأت بالقبح من أثر الفوضى والخلاعة والتكبر والعجز عن ضبط النفس ، رمى بها غير ناظر لمكانتها إلى قرار الجحيم لتلقى هنالك جزاء وفاقا

وقد ينزل « ردامنت » بهذه الأرواح عقاباً على قدر آثامها . ومن الأرواح من ترجى سلامتها فلا تقيم فى الجحيم إلا أجلا معلوماً تكفر فيه عن إثمها وتتطهر فيه من رجسها ثم تدخل بعد ذلك فى دار الصالحين ، ومن الأرواح مالا ترجى زكاتها بما اقترفت من آثام لا تتطهر فتمكث فى الجحيم مثلا للظالمين ، ولا تنس يا كالليكليس أن الحاكمين قد يكون فيهم الأشرار والآثمون ولا يمنع هؤلاء مانع أن يكون فيهم الأخيار الصالحون ، فإنا قد رأينا فى الحاكمين أخياراً عادلين كانوا أهلا لاحترامنا وإعجابنا ، فإنه من العسير يا كالليكليس أن يحيا رجل حياة عادلة إذا أطلقت يده فى المظالم من غير أن يحاسبه أحد ، وإن رأينا هذا الحاكم آتيناه حمدنا وثناءنا وقليل ما هؤلاء الرجال ، وأنا أعتقد أنهم قد وجدوا فى بلادنا وفى بلاد أخرى وسيوجد من بعدهم رجال صالحون طيبون يسوسون بالعدل ما قد يلقى إليهم من الأمر . وقد كان أرستيد المفرد العلم بين الإغريق جميعا وكان وفياً عادلا وقد حدثتك منذ حين أن « ردامنت » إن أمسك بروح من هؤلاء لا يعرف عنها شيئاً فلا يدرى من صاحبها ولا من قومه ، ولا يعلم إلا أنها روح شرير فيرسلها إلى الجحيم معلمة بأثر يبين إن كانت تبرأ أو لا تبرأ من سوئها ، وحينئذ يلقى الظالم جزاء وفاقا بما اقترف من إثم . وقد يرسل

« ردامنت » روحاً عاشت تقية نقية فى صحبة الحق ، وسواء أكانت روح رجل من عامة الناس أم كانت روح رجل من طبقة أخرى . وإن رأى روح فيلسوف حكيم عاش فيما يعنيه ولا يوزع نفسه بين الأطماع والفتن أحبها وأمتع نفسه بجمالها وحسنها وأرسلها إلى جزر السعداء . وإننى يا كالليكليس مؤمن بهذا الحديث وأحرص على أن أقدم لحسابى روحاً طيبة سليمة تقية وأدع عنى ما يستمتع به أكثر الناس من آيات المجد وأقف حياتى على الحقيقة ، حتى أستطيع بهذا المذهب وحده أن أسعد فى حياتى وفى مماتى ، وأن أكون خير ما أستطيع .

ولم يؤمن سقراط بخلود الروح إيماناً كإيمان العجائز و كفى ، بل علم تلاميذه التقوى بإيمانه واقتناعه ، لا يفرط فى الصلاة وكان مثلا للصالحين ، وكانت لهم فى سقراط أسوة صالحة . وكان يقنع تلاميذه بخلود الروح ما استطاع ، ولم يأخذوا عليه كذبة فى شىء مما دعا إليه ، وهم يصحبونه يوم يموت فيشهدون فى موته صدقاً فوق سائر ما دعا إليه ، فلم يمسسه رهق من خشية الموت وإنما تحدث إليهم بنفس مطمئنة راضية مستبشرة تبدى أطيب ما تحفظ ، كالطير المنذور « للأبولون » إذا شارف الموت شدا بأجمل صوته ، وهو يؤمن بالخلود عن بصيرة ، لأن الشىء يخرج من نقيضه ، كالصحو يأتى من النوم ، ويخرج

الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وليس الموت بخاتم للحياة كما يبدو للذين لا يرون سوى الأجسام ، إنما الموت عند سقراط بدء لحياة أخرى لا تشهدها الأبصار وتدركها قلوب الصالحين ، فالروح تدع جسمها حين الموت ، وهى نفحة من نفحات الله لا تتبدل بتبدل الجسم ولا تشهدها الأبصار ، وترقى إلى عالم شبيه بها ، فإن عاشت تقية طاهرة آوت إلى عالم طاهر خالد عند إله حكيم فى جنة النعيم ، وتتجرد من الجهل والخوف ومن أهواء الجسم الموحشة ومن شرور الإنسان ، وتقر خالدة فى حياة النعيم . وإن عاشت لا تتعلق بشىء سوى لذة الأجسام ، وتجافت عن طهارة القلب وتعلقت والهة بالجسم لا تنصرف عن لذات الدنيا ، فلا تريد شيئا سوى متعة الشراب والنساء ، وتكره الحكمة وما تدرك الحكمة من معانى الجمال والخير ، فهى ملوثة بذنوبها مثقلة بأهوائها مستمسكة بمتاع الأرض ، وهى ذات ثقل ثقيل لا يسمو إلى جوار الله وإنما تتخبط على على الأرض شقية بين مقابر الموتى وقد يبصر الناس أشباحها الموحشة . وقد آمن سقراط أنه سعيد بما عمل من صالح وأنه يلقى الله بقلب سليم ،

موت سقراط

جاوز سقراط السبعين وجاوزت أثينا سعادتها فخسرت حرب « البليبونيز » (سنة ٤٠٤ قبل المسيح) وهيض جناحها وغالتها الغوائل وتقوضت عمدها ووقع ما كان يحذر المصلحون . وحقت على ساسة أثينا كلمات سقراط واتسعت مسافة الخلف بين آمال سقراط وأعمال الحاكمين وصار حديث الحكيم سوط عذاب على نفوس العاجزين . وهم يريدون أن ينسوا صوت الحق ويستمتعوا بخلاقهم . وما ندرى ماذا أصاب الأثينيين فوق كلوم الموت والهزيمة وحكومة الطغاة . وما ندرى ما فعل سقراط بين يدى هذه الأحداث . وما نحسب إلا أن القدر قد فاجأ الأثينيين بقدر شديد أذل العزيز ، فاضطرب الميزان فى حكم المدينة ، وتريد طبيعة الأشياء ألا ينتهى الأبطال ، ولا تهوى البلاد العزيزة كما تنتهى سائر الأشياء ، ولا يفسر موتها إلا بسر شبيه بمعجزة حياتها . والذين عاشوا لأمتهم ودرءوا عنها العوادى وعاشوا فى رحاب العزة والمجد ، استمسكوا بمصير أمتهم وجعلوا آجالهم موقوفة بآجال فكرتهم ، كالربان الذى قاد سفينته للعزة والمجد

والذى يؤثر أن يهوى بها فى قرارة اليم على أن يسلمها للزمان فريسة ذليلة هينة . ونرى أبطال روما الذين عاشوا لمجدها وحريتها يتبعون مصير هذه الحرية يوم تتردى هزيمة ونرى ما يقول الشاعر « لوكان » فى « بومبيه » صورة لأشغال الأبطال فى كل دهر كالوالد الذى ثكل ولده الغالى فهو يشيعه إلى قبره ويوقد لدى قبره شعلة الذكرى ويمكث لديه ما شاء الله أن يمكث وأنت كذلك يا روما لن أنفض يدى منك قبل أن أحتضنك جثة هامدة ، وأنت كذلك أيتها الحرية لن أقلع عن ذلك ولن أكف عن ذكرك حتى ولو لم يبق منك إلا صيحة فى واد .

وقد شاء القدر أن يجمع بين مصير سقراط ومصير أثينا التى عاش لعزتها ، وذلك تأويل مبهم لا نعرف سره إلا إيهاماً . وظاهر الأمر أن فئة من الأثينيين قدمت سقراط للقضاء وعابته بإثمها فاتهمت سقراط بما جنت يمينها . ولقد نفسر صمت سقراط فى هذه المحاكمة باستعلاء الحزين الذى لا يجد كرامة للكلام والذى سئم تكاليف الحياة بعد ما هوت السفينة التى عاش لها ، ولقد نفسره بكبرياء الحق ، وهو على أى معنى من المعانى صمت جميل أكرم من كل قول . أرأيت لو أن أباً شيخاً كبيراً قد غاله بنوه بعد ما أنفق فى سبيل سعادتهم عقله وحياته ودينه ؟ ! ولقد سأل سقراط بعض تلاميذه أن يدافع عن نفسه فأبى ، وقال إن

حياتى وما قدمت من خير أكرم ما أعددت من دفاع . ولقد جاء سقراط بعد ما ذهبت الحرب والوباء بكثير من الصالحين ، فلم تغفل أثينا عن آمالها ، وما كانت سياسة سقراط بعسيرة على الصالحين . ولكن سقراط قد آنس الدار مقفرة ممن حملوا راية المجد ، فوقف يدعو إلى دين الفاضلين ، وما كان أشبه مصير أثينا بمصير أبطالها بين عشية المجد وضحى الهزيمة أحداث مفاجئة فوق طاقة الأبطال ، وتثكل أثينا فى الحرب طرفا من بنيها ويذهب الوباء بطرف آخر ، ويجرد البطل من درعه وذخره وكأن أثينا والباقين من أبطالها قد آنسوا سهام القدر ترمى مواطن القوة فيهم ، لأن أبناء الأمة الصالحين هم عتادها وقوتها وكأن صوتاً يتردد فى أفئدة المخلصين كالذى تردد فى قلب الشاعر العربى :

سبقوا هوىّ وأعنقو الهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتهافت أبناء أثينا على الموت فتغيرت عندها آيات الأشياء وأشفق أبناؤها خيفة عليها . ونرى « توسيديد » يقص أحاديث أثينا وهى تتردى بين أظفار المنية وهو يعلم ما يقول ، فإن هذه المنية قد بدلت قيم الأشياء فى أنفس الناس . ونراه يصف كل شىء

من وقع ذلك البلاء . فقد كانت أثينا فى حرب « البيلوبونيز » تحارب « اسبارطة » على السيادة . وآوت إلى أسوارها أهل القرى من بنيها . وتكدس الأثينيون فى المدينة ، ولم يفجأهم إلا وباء لا حيلة فيه للأساة الذين جهلوا الداء والدواء معا ولا يكادون يقربون مرضاهم حتى يخروا هم ومرضاهم صرعى . وضلت حيلة الأساة فما أغنى علمهم عن الناس شيئا ، وهرع الناس إلى المعابد يضرعون إلى الله فما أغنت عنهم الضراعة شيئا ، وضل سعيهم فأقلعوا عن الضراعة والتمائم ، وغلبهم الموت فتهافتوا عليه مكرهين ، وحارت ألباب الناس فشاع فيهم أن « اسبارطة » قد دست لهم السم فى الآبار .

ولا نحسب مؤرخاً يفسر ظاهرة الوباء تفصيلا إلا أن يكون هذا الوباء هادماً لقيم غالية عزيزة ، ويأخذ الوباء بأبدان المرضى فيحرق أجوافهم بلهب شديد لا يطيقون معه مس الثياب ويتهافتون على الماء تهافت الفراش على النار ، ومنهم من يرمى بنفسه فى الآبار لينقع ظمأ لا يرتوى ، ومن أفلت من مخالب الموت لا يفلت من أثر الوباء . ومن الناس من يأكل الوباء أطرافه ويذهب ببصره ويعقبه نسيا ينسيه نفسه وذويه . وجاء ذلك الوباء ببلاء لا يبلغه الوصف وجاوز طاقة البشر وعافت الطير والكواسر جثث الموتى فلم تقربها على كثرتها ، وهجرت

الطير سماء أثينا خوفاً من الموت ، وعافت الكلاب أصحابها رغم ما فطرت عليه من سجية المعاشرة ، وهلك المرضى ومن يقوم عليهم ومن ينج بنفسه يدركه الموت وحيداً ، ومن يغلبه ضميره فيقرب صديقه هلكا معاً ، وأقفرت بيوت كثيرة من أهلها وزاد المدينة بلاء ما تكدس فى أسوارها من أهل القرى والذين فتك بهم الوباء فتكا ذريعاً فلم يكن لهم مأوى فى المدينة سوى أكواخ خانقة ، ونراهم هالكين أكواما بعضهم فوق بعض ويتمرغون فى الطرقات ويتهافتون على منابع الماء ، وملئت المعابد بجثثهم وضج الناس من هول النزع وواروا موتاهم بما استطاعوا ولا ينظرون ما يفعلون ، ومن الناس من يلقى موتاه فوق موتى الآخرين ثم يولى فراراً .

ولا ريب أن « توسيديد » لم يحفل بهذه الأحداث سدى ولم يرد أن يصور صورة تأخذ بالألباب وكفى ، ولكن هذه أحداث لها ما وراءها ، فهى ضياع لهذه القيم التى يقوم عليها مجد المدينة سيغير الموت ما شرع الأولون وتتضاءل عند الأحياء قيم المعانى الإنسانية فلم تكن أثينا يوم نزل بها الوباء قد تجاوزت زمانها السعيد ، كانت يومئذ عزيزة بأبنائها صالحة بالقيم العتيدة الموروثة ، فزلزلت آمالها من أثر الوباء والحرب ، وشيوخ الأثينيين يومئذ جعلوا يذكرون شعراً قديماً ستأتى الحرب الدورية ويأتى معها الوباء وقد أتى الوباء على المدينة بفوضى بالغة ،

فقد استباح الناس من اللذات ما استتروا من فعله من قبل ، فقد رأوا أن السعادة قد تدبر عن السعداء فجأة ويأتيهم الموت من حيث لا يشعرون ويذهب عمن مات ثراؤه إلى الفقراء نهباً ، وجعل الناس يولون همهم شطر اللذات لأنهم آمنوا أن الإنسان هالك ولا بقاء للمال والإنسان ، ولا يشتهى أحد أن يعنى نفسه بغاية نبيلة لأنه لا يعرف متى تأتيه المنية ولا يدرى أيدرك مأربه قبل أن يلحقه الموت . وعدت اللذات بأى ثمن ومن أى طريق غايات الجمال والخير ، ولا يخشى الإنسان الآلهة ولا القوانين البشرية ، واستوت التقوى والفجور ، فقد رأوا الناس جميعاً هالكين . ومن ثم لا يدرى أحد أيعيش حتى يكفر عن إثمه ، وأمليت على الناس حكمة وهو أن يغنموا من الحياة أية متعة قبل أن يفقدوها .

ويومئذ استطار فى السياسة شر آفة لكل سياسة يوم لا تكون السياسة إلا مغنما للفرد ومغرماً للدولة ويوم يتشبه الساسة بالعظماء وما هم بعظماء . وقد فكر الكتّاب والشعراء والفلاسفة فى هذه الآفة وشغلت من حياتهم فراغاً كبيراً ، فمن الخير للأفراد كما يقول « توسيديد » أن تسعد المدينة فى مجموعها من أن يسعد أفراد وتنهار المدينة ، لأن الفرد إذا نجح على حين سقطة من المدينة فمصيره أن يسقط معها ، وإن خسر على حين نجاح من المدينة فمصيره أن ينجح معها . فسعادة الدولة سعادة لكل

فرد ونكبة الدولة نكبة لكل فرد . ولا يغنى عن الأفراد مالهم ولا أولادهم ولا جاههم فى وطن تعس كسير .

• • •

بعد هذه الأحداث والهزيمة قدم سقراط للقضاء ، فاتهمه متهموه بالكفر بآلهة المدينة وإفساد شباب المدينة . وقد أنصت سقراط لتهم المتهمين دون أن يفزع من الكذب ، ورأى قضاته يميلون كل الميل دون أن يروعه شبح الظلم ، ولم يكن سقراط فى حياته أكرم على نفسه من لقاء هذا الظلم . واستطاع متهموه بفصاحتهم أن يثيروا نفوس القضاة وأن يخرجوا من تهمهم بالحكم على سقراط بالموت . وقد كان ذلك العقاب أليما على نفوس تلاميذ سقراط ، فكتبوا بعد موته يبينون للأثينيين ما ظلموا ، وكان أفلاطون أشدهم حنقاً على هؤلاء القضاة ، فكتب بعد موت سقراط دفاعاً عن سقراط نأخذ منه ببعض هذه الصور قال : « والآن أيها الأثينيون إننى بعيد كل البعد عن أن أدافع عن نفسى كما قد يبدو لبعضكم ، ولكنى حريص على سعادتكم وأخاف ألا تحفظوا نعمة الله عليكم فتقتلونى ، وإذا قتلتمونى فلن تجدوا رجلا مثلى ، ولا تتخذوا ما أقول لكم هزواً . إن الآلهة قد جعلتنى شوكة فى جانب هذه المدينة ، لأكون « كالمهماز » فى جانب الجواد الكريم الذى قد يثقله عظمته فيخمل ولا بد له

من شوكة المهماز لينشط . وكذلك أرسلنى الله إليكم لأوقظكم من سباتكم ولأقنعكم ولألوم كلا منكم ولا أكف عن ذلك كلما لاقيتكم . ولا سبيل لكم أن تجدوا رجلا مثلى . وأولى بكم إن صدقتمونى أن تطلقوا سراحي .. ومن يدرى لعلكم تحنقون علىّ فتضربوننى كما يضرب النائم فى سبات عميق من يوقظه . ثم تقتلوننى طاعة لآنيتوس . ثم تقضون بقية حياتكم من بعدى فى نوم عميق إلا أن يرحمكم الله فيهيئ لكم رجلا مثلى . وستعلمون أننى لم أفعل ما فعلت إلا بقدر الله الذى قدرنى لكم . فليس من طبيعة البشر أن تروا رجلا يغفل ماله وداره سنين عدداً ولا يغفل عن سعادتكم يوماً واحداً ويلقى كلا منكم على انفراد كما يلقى الوالد ولده والأخ أخاه . ويحرضكم على أن تتحلوا بالفضيلة والعلم . ولو أننى فعلت ما فعلت ابتغاء جزاء أو نصحتكم رجاء أجر . كان لى فيما فعلت مبرر . وإنكم ترون متهمىّ قد خلعوا عذار الحياء فاتهمونى بكل إثم . ولكنهم عجزوا عن أن يأتوا بشاهد واحد ليشهد على أننى سألتكم يوماً ما جزاء أو شكوراً »

• • •

ومحا أفلاطون تهم المتهمين ببيان كبيان المحامين . فدمغ الحجة بالحجة . وأزهق الباطل بالحق . فأما التهمة الأولى وهى أن سقراط قد كفر بآلهة المدينة فالمسئول عنها فى رأى أفلاطون هو

« أريسطوفان » الذى صور لهؤلاء القضاة مذ كانوا فتية سقراط معلقاً فى الهواء يريد أن يكشف حجب الطبيعة ولا يؤمن بالله ويؤمن بالسحاب وينصر الباطل على الحق ويعلم الناس الكفر . فشب أبناء أثينا من ذلك الجيل على صورة باطلة وهى أن كل فيلسوف كافر ، فلما قدم سقراط للقضاة كان قضاته قد أعدوا منذ الصبا لقبول هذه التهمة . وأما التهمة الأخرى وهى أن سقراط قد أفسد شباب أثينا ، فهى نقمة قد نقمها القضاة أنفسهم على سقراط . فإن سقراط وتلاميذه قد انطلقوا فى الأسواق يكشفون عن جهل الجاهلين . وإن فئة من « فتية المدينة » قد صاحبونى وهم الذين كان لهم من ثرائهم فراغ من الوقت فصاحبونى غير مكرهين . واستمتعوا بمذهبى فى امتحان الرجال ، و كثيراً ما قلدونى فانطلقوا يمتحنون أقدار الرجال من بعدى . وإخال أنهم قد أثاروا حفيظة الذين يحسبون أنفسهم على شىء من العلم وهم لا يعلمون من العلم شيئاً أو لا يكادون يعلمون منه إلا قليلا والذين أصابهم هذا الامتحان قد حنقوا علىّ ولم يحنقوا على هؤلاء الفتيان ، وقالوا إن رجلا يسمى سقراط كافر مفسد للشباب » .

وتجاوز أفلاطون عن القضية ليفصل حياة أستاذه تفصيلا ، وليبين ورعه وتقواه وإيمانه وشجاعته ووفاءه لأمته . وقد قال ما لم يرد سقراط أن يقول ، وظهرت كرامة هذا الشيخ الحكيم غير

مرة على ريشة تلميذه أفلاطون الذى يعده القدماء أشعر الكاتبين
« هذا أيها الأثينيون ما أدافع به عن نفسى والذى بقى لا يختلف عما قدمت من حجج . ولعل أحدكم إن نظر فى نفسه فقارن بينى وبينه ثارت ثائرته لأنه إن وقع فى ضائقة دون هذه الضائقة وقف يبكى ويضرع ويبتهل ويذرف ما شاء الله أن يذرف من الدمع ، ويأتيكم بأطفاله ليستدر رحمتكم ويأتيكم بفوج كبير من أهله وأصحابه . أما أنا فلن أفعل من ذلك شيئاً وإن كنت ألقى أشد الأخطار كما ترون . . ولعل بعضكم إن ذكر لكم ذلك صغرت عليه نفسه فغضب وقضى علىّ ، ولو أن أحداً منكم وجد هذا الشعور فإنى أستطيع أن أحدثه بهذا الحديث :
يا عزيزى إن لى أهلا وعشيرة ولم أولد من حجر ولا من شجر ، كما يقول « هومير » . ولكننى ولدت من البشر ولى أهل وبنون لى ثلاثة أبناء : أما أحدهم ففتى يافع ، وأما الآخران فصبيان صغيران ، ولست آتى بأحد منهم إليكم استدراراً لرحمتكم ، وما بالى لا أفعل ذلك أيها الأثينيون ! إننى لم أفعله عن تكبر ولا عن احتقار لشأنكم ، ولست بسبيل أن أبين لكم إن كنت ألقى الموت شجاعاً أم لا ، ولكنى لا أفعل ذلك لأنى لا أراه جديراً بسمعتى ولا بشرفكم ولا بشرف المدينة جميعاً . فليس يجمل بى أن أفعل ذلك بعد ما بلغت من العمر ما بلغت وأدركت من

الشهرة ما أدركت حقاً أو باطلا . فقد شاع بين الناس أن رجلا يدعى سقراط قد تفرد على الناس بالفضل . وإنه لمن العار أن يرتكب الذين أوتوا قدراً من الفضل فى الحكمة أو فى الشجاعة أو فى فضيلة ما العجيب من العجز والضعف حينما يقدمون للقضاء كأن الموت إحدى المكاره ، وكأنهم يحسبون أنهم خالدون إذا برأتم ساحتهم . إن هؤلاء يجرون على أمتهم الخزى والعار . فإن رآهم غريب حل له أن يقول إن زعماء الأثينيين الذين رفعهم الأثينيون إلى حكومتهم وآتوهم الصدارة فى كل شىء .. أولئك يبكون من الأحداث كما تبكى النساء » .

° ° °

وبين الحكم بالموت على سقراط وبين تنفيذه فترة من الزمن قضاها سقراط فى السجن . وإن تلاميذه المصطفون الأخيار يقبلون منذ الفجر فيجتمعون على ربوة الخطابة التى اتهم عليها سقراط وكانت تشرف على باب السجن ، ثم ينتظرون حتى يفتح السجان لهم ويدخلون لدى سقراط يجادلونه فى خلود الروح . وكان سقراط يلقى الموت ببشر واطمئنان لأنه فاتحة حياة خالدة سعيدة وآمن سقراط أن الصالحين العادلين خالدون عند الله وعند الطيبين الأخيار كما رأينا ، وهكذا قضى أعدل الناس كما يقول أفلاطون !!